سورة الروم

١ ـ **هذه السورة تسمى سورة الروم** في عهد النبي ﷺ وأصحابه كما في حديث الترمذي عن ابن عباس ونيار بن مكرم الأسلمي، وسيأتي قريباً في تفسير الآية الأولى من السورة.

ووجه ذلك أنه ورد فيها ذكر اسم الروم، ولم يرد في غيرها من القرآن.

وهي مكية كلها بالاتفاق حكاه ابن عطية والقرطبي، ولم يذكرها صاحب الإتقان في السور المختلف في مكيتها ولا في بعض آيها. ٢١/٣٩

٢ـ **وهي السورة الرابعة والثمانون في تعداد نزول السور،** نزلت بعد سورة الانشقاق، وقبل سورة العنكبوت.

وقد روي عن قتادة، وغيره أن غَلَبَ الروم على الفرس كان في عام بيعة الرضوان؛ ولذلك استفاضت الروايات، وكان بعد قتل أبي بن خلف يوم أحد.

واتفقت الروايات على أن غلب الروم للفرس وقع بعد مضي سبع سنين من غلب الفرس على الروم الذي نزلت عنده هذه السورة.

ومن قال: إن ذلك كان بعد تسع سنين بتقديم التاء المثناة فقد حُمِل على التصحيف كما رواه القرطبي عن القشيري يقتضي أن نزول سورة الروم كان في سنة إحدى عشرة قبل الهجرة؛ لأن بيعة الرضوان كانت في سنة ست بعد الهجرة.

وعن أبي سعيد الخذري[1] أن انتصار الروم على فارس يوافق يومه يوم بدر.

وعدد آيها في عد أهل المدينة، وأهل مكة تسع وخمسون، وفي عدد أهل

١ـ هكذا في الأصل، والصواب: الخدري. (م)

الشام والبصرة والكوفة ستون.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن ابن عباس والواحدي وغير واحد: أنه لما تحارب الفرس والروم الحرب التي سنذكرها عند قوله ـتعالى ـ: ﴿ غُلِبَتْ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ وتغلَّب الفرسُ على الروم كان المشركون من أهل مكة فرحين بغلب الفرس على الروم؛ لأن الفرس كانوا مشركين ولم يكونوا أهل كتاب؛ فكان حالهم أقرب إلى حال قريش، ولأن عرب الحجاز والعراق كانوا من أنصار الفرس، وكان عرب الشام من أنصار الروم؛ فأظهرت قريش التطاول على المسلمين بذلك؛ فأنزل الله هذه السورة؛ مقتاً لهم، وإبطالاً لتطاولهم بأن الله سينصر الروم على الفرس بعد سنين؛ فلذلك لما نزلت الآيات الأولى من هذه السورة خرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة: ﴿ الم(١) غُلِبَتْ الرُّومُ(٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وراهن أبوبكر المشركين على ذلك كما سيأتي. ٢١/٣٩ـ٤٠

٣ـ **أول أغراض هذه السورة** سبب نزولها على ما سَرَّ المشركين من تغلُّب الفرس على الروم؛ فقَمَعَ اللهُ ـتعالى ـ تطاولَ المشركين به، وتحدَّاهم بأن العاقبةَ للروم في الغُلْب على الفرس بعد سنين قليلة.

ثم تَطَرَّق من ذلك إلى تجهيل المشركين بأنهم لا تغوص أفهامُهم في الاعتبار بالأحداث، ولا في أسباب نهوضٍ وانحدار الأمم من الجانب الرباني، ومن ذلك إهمالُهم النظرَ في الحياة الثانية، ولم يتعظوا بهلاك الأمم السالفة المماثلة لهم في الإشراك بالله، وانْتَقَل من ذلك إلى ذكر البعث.

واسْتَدَلَّ لذلك ولوحدانيته ـتعالى ـ بدلائلَ من آياتِ الله في تكوين نظام العالم

ونظامِ حياة الإنسان.

ثم حضَّ النبيَّ ﷺ والمسلمين على التمسك بهذا الدين ، وأثنى عليه.

ونَظَرَ بين الفضائل التي يدعو إليها الإسلام وبين حال المشركين ورذائلهم ، وضربَ أمثالاً لإحياء مُخْتَلَفِ الأمواتِ بعد زوال الحياة عنها ، ولإحياء الأمم بعد يأسِ الناس منها ، وأمثالاً لحدوث القوة بعد الضعف وبعكس ذلك.

وختمَ ذلك بالعود إلى إثبات ، البعث ثم بتثبيت النبي ﷺ وَوَعْدِه بالنصر.

ومن أَعْظم ما اشتملت عليه التصريحُ بأن الإسلامَ دينٌ فطر اللهُ الناس عليه ، وأن مَنْ ابتغى غيرَه ديناً فقد حاول تبديل ما خلق الله ، وأنى له ذلك. ٢١/٤٠-٤١

٤- **والروم:** اسم غلب في كلام العرب على أمة مختلطة من اليونان والصقالبة ، ومن الرومانيين الذين أصلهم من اللاطينيين سكان بلاد إيطاليا نزحوا إلى أطراف شرق أوربا.

تَقَوَّمت هذه الأمة المسماة الروم على هذا المزيج ، فجاءت منها مملكة تحتل قطعة من أوربا ، وقطعة من آسيا الصغرى وهي بلاد الأناضول.

وقد أطلق العرب على مجموع هذه الأمة اسم الروم؛ تفرقة بينهم وبين الرومان اللاطينيين.

وسموا الروم -أيضاً- ببني الأصفر كما جاء في حديث أبي سفيان عن كتاب النبي ﷺ المبعوث إلى هرقل سلطان الروم وهو في حمص من بلاد الشام؛ إذ قال أبو سفيان لأصحابه : «لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة؛ إنه يخافه ملك بني الأصفر» .

وسبب اتصال الأمة الرومانية بالأمة اليونانية ، وتكوُّن أمة الروم من الخليطين- هو أن اليونان كان لهم استيلاءٌ على صقلية وبعض بلاد إيطاليا ، وكانوا بذلك في

اتصالات وحروب سجال مع الرومان، ربما عظمت واتسعت مملكة الرومان تدريجاً بسبب الفتوحات، وتسربت سلطتهم إلى إفريقيا، وأداني آسيا الصغرى بفتوحات (يوليوس قيصر) لمصر وشمال أفريقيا، وبلاد اليونان وبتوالي الفتوحات للقياصرة من بعده، فصارت تبلغ من رومة إلى أرمينيا والعراق.

ودخلت فيها بلاد اليونان، ومدائن رودس وساقس وكاريا والصقابلة الذين على نهر الطونة، ولحق بها البيزنطينيون المنسبون إلى مدينة بيزنطة الواقعة في موقع استانبول على البسفور.

وهم أصناف من اليونان والإسبرطيين، وكانوا أهل تجارة عظيمة في أوائل القرن الرابع قبل المسيح ثم ألّفوا اتحاداً بينهم وبين أهل رودس وساقس، وكانت بيزنطة من جملة مملكة إسكندر المقدوني، وبعد موته واقتسام قواده المملكة من بعده صارت بيزنطة دولة مستقلة، وانضوت تحت سلطة رومة؛ فحكمها قياصرة الرومان إلى أن صار قسطنطين قيصراً لرومة، وانفرد بالسلطة في حدود سنة ٣٢٢ مسيحية، وجمع شتات المملكة، فجعل للملكة[1] عاصمتين: عاصمة غربية هي رومة، وعاصمة شرقية اختطها مدينة عظيمة على بقايا مدينة بيزنطة وسماها (قسطنطينية) وانصرفت همته إلى سكناها، فنالت شهرة تفوق (رومة).

وبعد موته سنة ٣٣٧ قسمت المملكة بين أولاده، وكان القسم الشرقي الذي هو بلاد الروم وعاصمته القسطنطينية لابنه (قسطنطينيوس) فمنذ ذلك الحين صارت مملكة القسطنطينية هي مملكة الروم، وبقيت مملكة رومة مملكة الرومان.

وزاد انفصال المملكتين في سنة ٣٩٥ حين قسم (طيودسيوس) بلدان السلطنة

---

١ ـ هكذا في الأصل، والصواب: للمملكة. (م)

الرومانية بين ولديه، فجعلها قسمين مملكة شرقية ومملكة غربية؛ فاشتهرت المملكة الشرقية باسم بلاد الروم وعاصمتها (القسطنطينية).

ويعرف الروم عند الإفرنج بالبيزنطيين، نسبة إلى بيزنطة اسم مدينةٍ يونانية قديمة واقعة على شاطئ البوسفور الذي هو قسم من موقع المدينة التي حدثت بعدها ـكما تقدم آنفاًـ.

وقد صارت ذات تجارة عظيمة في القرن الخامس قبل المسيح، وسمي ميناها بالقرن الذهبي.

وفي أواخر القرن الرابع قبل المسيح خلعت طاعة أثينا، وفي أواسط القرن الرابع بعد المسيح جُعل قسطنطين سلطان مدينة القسطنطينية.

وهذا الغُلْبُ الذي ذكر في هذه الآية هو انهزام الروم في الحرب التي جرت بينهم وبين الفرس سنة ٦١٥ مسيحية، وذلك أن (خسرو) ابن (هرمز) ملك الفرس غزا الروم في بلاد الشام وفلسطين وهي من البلاد الواقعة تحت حكم هرقل قيصر الروم؛ فنازل إنطاكية، ثم دمشق، وكانت الهزيمة العظيمة على الروم في أطراف بلاد الشام المحادةِ بلادَ العربِ بين بُصرى وأذرعات، وذلك هو المراد في هذه الآية بـ﴿ أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ أي أدنى بلاد الروم إلى بلاد العرب.

فالتعريف في ﴿ الأَرْضِ ﴾ للعهد، أي أرض الروم المتحدث عنهم، أو اللام عوض عن المضاف إليه، أي في أدنى أرضهم، أو أدنى أرض الله.

وحُذِف متعلق ﴿ أَدْنَى ﴾ لظهور أن تقديره: من أرضكم، أي أقرب بلاد الروم من أرض العرب؛ فإن بلاد الشام تابعة يومئذ للروم، وهي أقرب مملكة الروم من بلاد العرب.

وكانت هذه الهزيمة هزيمة كبرى للروم. ٢١/٤٢-٤٣

٥- **وفائدةُ ذكرِ ﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾** : التنبيه على عظم تلك الهزيمة عليهم، وأنها بحيث لا يظن نصر لهم بعدها؛ فابتهج بذلك المشركون؛ فالوعد بأنهم سيغلبون بعد ذلك الانهزام في أمد غير طويل تَحدٍّ تحدَّى به القرآنُ المشركين، ودليل على أن الله قدَّر لهم الغلب على الفرس؛ تقديراً خارقاً للعادة معجزة لنبيه ﷺ وكرامة للمسلمين.

ولفظ ﴿بِضْعَ﴾ بكسر الموحدة كناية عن عدد قليل لا يتجاوز العشرة، وقد تقدم في قوله -تعالى-: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ في سورة يوسف، وهذا أَجَلٌ لرد الكرة لهم على الفرس.

وحكمة إبهام عدد السنين أنه مقتضى حال كلام العظيم الحكيم أن يقتصر على المقصود إجمالاً، وأن لا يتنازل إلى التفصيل؛ لأن ذلك التفصيل يتنزل منزلة الحشو عند أهل العقول الراجحة، وليكون للمسلمين رجاءٌ في مدة أقرب مما ظهر؛ ففي ذلك تفريج عليهم.

وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الجهة الرابعة في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير. ٢١/٤٤

٦- روى الترمذي بأسانيد حسنة وصحيحة أن المشركين كانوا يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإياهم أهل أوثان وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب مثلهم، فكانت فارس يوم نزلت ﴿الم غُلِبَتْ الرُّومُ﴾ قاهرين للروم؛ فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله: «**أما أنهم سيغلبون**».

ونزلت هذه الآية، فخرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة: ﴿الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

فقال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين؛ أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى وذلك قبل تحريم الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فَسَمِّ بيننا وبينك وسطاً ننتهي إليه، فسمى أبو بكر لهم ست سنين؛ فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، فمضت الست السنين قبل أن يظهر الروم، فأخذ المشركون رهن أبي بكر.

وقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «**ألا أخفضت يا أبا بكر، ألا جعلته إلى دون العشر؛ فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع**».

وعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، وأسلم عند ذلك ناس كثير.

وذكر المفسرون أن الذي راهن أبا بكر هو أبي بن خلف، وأنهم جعلوا الرهان خمس قلائص.

وفي رواية أنهم بعد أن جعلوا الأجل ستة أعوام غيروه، فجعلوه تسعة أعوام، وازدادوا في عدد القلائص، وأن أبا بكر لما أراد الهجرة مع النبي ﷺ تعلق به أبي بن خلف وقال له: أعطني كفيلاً بالخطر إن غلبت، فكفل به ابنه عبدالرحمن، وكان عبد الرحمن أيامئذ مشركاً باقياً بمكة، وأنه لما أراد أبي ابن خلف الخروج إلى أحد طلبه عبدالرحمن بكفيل، فأعطاه كفيلاً، ثم مات أبي بمكة من جرح جرحه النبي ﷺ فلما غلب الروم بعد سبع سنين أخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبي بن خلف.

وقد كان تغلب الروم على الفرس في سنة ست وورد الخبر إلى المسلمين.

وفي حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: «لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين».

والمعروف أن ذلك كان يوم الحديبية، وقد تقدم في أول السورة أن المدة بين انهزام الروم وانهزام الفرس سبع سنين بتقديم السين، وأن ما وقع في بعض الروايات أنها تسع هو تصحيف.

وقد كان غلب الروم على الفرس في سلطنة هرقل قيصر الروم، وبإثره جاء هرقل إلى بلاد الشام، ونزل حمص، ولقي أبا سفيان بن حرب في رهط من أهل مكة جاءوا تجاراً إلى الشام.

واعلم أن هذه الرواية في مخاطرة أبي بكر وأبي بن خلف وتقرير النبي ﷺ إياها احتج بها أبو حنيفة على جواز العقود الربوية مع أهل الحرب.

وأما الجمهور فهذا يرونه منسوخاً بما ورد من النهي عن القمار نهياً مطلقاً لم يقيد بغير أهل الحرب.

وتحقيق المسألة أن المراهنة التي جرت بين أبي بكر وأبي بن خلف جرت على الإباحة الأصلية؛ إذ لم يكن شرع بمكة أيامئذ؛ فلا دليل فيها على إباحة المراهنة، وأن تحريم المراهنة بعد ذلك تشريعٌ أُنُفٌ وليس من النسخ في شيء. ٢١/٤٥ـ٤٦

٧ـ ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾.

تقديم المجرور في قوله: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ﴾ لإبطال تطاول المشركين الذين بَهَجَهُم غلب الفرس على الروم؛ لأنهم عبدة أصنام مثلهم؛ لاستلزامه الاعتقاد بأن ذلك الغلب من نَصْرِ الأصنامِ عُبَّادَها؛ فبين لهم بطلان ذلك، وأن التصرف لله وحده

في الحالين للحكمة التي بيناها آنفاً كما دل عليه التذييل بقوله: ﴿ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾.

فيه أدب عظيم للمسلمين، لكي لا يعللوا الحوادث بغير أسبابها، وينتحلوا لها عللاً توافق الأهواء كما كانت تفعله الدجاجلة من الكهان وأضرابهم.

وهذا المعنى كان النبيﷺ يعلنه في خطبه؛ فقد كسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن النبي فقال الناس: كسفت لموت إبراهيم فخطب النبيﷺ فقال في خطبته: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته**».

وكان من صناعة الدجل أن يتلقن أصحاب الدجل الحوادث المقارنة لبعض الأحوال؛ فيزعموا أنها كانت لذلك مع أنها تنفع أقواماً وتضر بآخرين؛ ولهذا كان التأييد بنصر الروم في هذه الآية موعوداً به من قبل؛ ليعلم الناس كلهم أنه مُتَحَدًّى به قبل وقوعه لا مُدَّعًى به بعد وقوعه، ولهذا قال ـ تعالى ـ بعد الوعود: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾. ٢١/٤٦ـ٤٧

٨ـ **والروضة**: كل أرض ذات أشجار، وماء، وأزهار في البادية، أو في الجنان.

ومن أمثال العرب: «أحسن من بيضة في روضة» يريدون بيضة النعامة.

وقد جمع محاسن الروضة قول الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسبل هطل

يضاحك الشمسَ منها كوكبٌ[1] شرق ... مؤزر بعميم النبت مكتهل

٢١/٦٤

١ـ أراد بالكوكب النور؛ تشبيهاً له بكوكب نجوم السماء في البياض والاستدارة.

٩ـ **وإخراج الحي من الميت يظهر في أحوال كثيرة منها:** إنشاء الأجنة من النطف، وإنشاء الفراخ من البيض؛ وإخراج الميت من الحي يظهر في العكس وقد تقدم في سورة آل عمران.

وفي الآية إيماءٌ إلى أن الله يخرج من غلاة المشركين أفاضل من المؤمنين مثل إخراج خالد بن الوليد من أبيه الوليد بن المغيرة، وإخراج هند بنت عتبة ابن ربيعة من أبيها أحد أئمة الكفر.

وقد قالت للنبيﷺ: «ما كان أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، واليوم ما أهلُ خباءٍ أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك» فقال لها النبيﷺ: **«وأيضاً»** (أي ستزيدين حباً لنا بسبب نور الإسلام).

وإخراج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط من أبيها، ولما كلمت أم كلثوم بنت عقبة رسول اللهﷺ في شأن إسلامها وهجرتها إلى المدينة حين جاء أخواها يرومان ردها إلى مكة حسب شروط الهدنة فقالت: يا رسول الله أنا امرأة، وحال النساء إلى الضعف؛ فأخشى أن يفتنوني في ديني ولا صبر لي، فقرأ النبيﷺ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ﴾ ونزلت آية الامتحان؛ فلم يَرُدَّها رسول اللهﷺ إليهما، وكانت أول النساء المهاجرات إلى المدينة بعد صلح الحديبية. ٦٨/٢١

١٠ـ **وأما اختلاف ألوان البشر** فهو آية -أيضاً- لأن البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم، وله لون واحد لا محالة، ولعله البياض المشوب بحمرة؛ فلما تعدد نسله جاءت الألوان المختلفة في بشراتهم وذلك الاختلاف معلول لعدة علل أهمها المواطن المختلفة بالحرارة والبرودة، ومنها التوالد من أبوين مختلفي اللون مثل المتولد من أم سوداء وأب أبيض، ومنها العلل والأمراض التي تؤثر تلويناً في

الجلد، ومنها اختلاف الأغذية.

ولذلك لم يكن اختلاف ألوان البشر دليلاً على اختلاف النوع بل هو نوع واحد؛ فللبشر ألوان كثيرة أصلاها البياض والسواد، وقد أشار إلى هذا أبو علي ابن سينا في أرجوزته في الطب بقوله:

بالنزج حرّ غَيَّر الأجساد — حتى كسا بياضها سوادا

والصقلب اكتسبت البياضا — حتى غدت جلودها بضاضا

٤٧/٢١

١١ ـ **وكان أصل اللون البياض**؛ لأنه غير محتاج إلى علة، ولأن التشريح أثبت أن ألوان لحوم البشر التي تحت الطبقة الجلدية متحدة اللون.

ومن البياض والسواد انشقت ألوان قبائل البشر؛ فجاء منها اللون الأصفر واللون الأسمر واللون الأحمر.

ومن العلماء وهو (كوقيي)[١] جعل أصول ألوان البشر ثلاثة: الأبيض والأسود والأصفر، وهو لون أهل الصين.

ومنهم من زاد الأحمر، وهو لون سكان قارة أمريكا الأصليين المدعوين هنودَ أمريكا. ٢١/٧٤ـ٧٥

١٢ ـ **وحالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان**؛ إذ جعل الله له في نظام أعصاب دماغه قانوناً يسترد به قوة مجموعه العصبي بعد أن يعتريه فشل الإعياء من إعمال عقله وجسده؛ فيعتريه شِبْهُ موتٍ يخدر إدراكه، ولا يعطل حركات أعضائه الرئيسية، ولكنه يثبطها حتى يبلغ من الزمن مقداراً كافياً

---

١ ـ كوقيي عالم طبيعي فرنسي ولد سنة ١٧٦٩ وتوفي سنة ١٨٣٢.

لاسترجاع قوته؛ فيفيق من نومته، وتعود إليه حياته كاملة. ٧٦/٢١

١٣ـ **ومعنى فطر الناس على الدين الحنيف**: أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها، غير نائين عنه ولا منكرين له مثل إثبات الوحدانية لله؛ لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل، والنظر الصحيح حتى لو ترك الإنسانُ وتفكيرَه، ولم يلقن اعتقاداً ضالاً لاهتدى إلى التوحيد بفطرته. ٩٠/٢١

١٤ـ **وإن لم أر من أتقن الإفصاح عن معنى كون الإسلام هو الفطرة فأبينه:** بأن الفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، والفطرة التي تخص نوع الإنسان هي ما خلقه الله عليه جسداً وعقلاً، فَمَشْيُ الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولته أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسدية، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية، ومحاولة استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقلية، وهو المسمى في علم الاستدلال بفساد الوضع.

وجَزْمنا بأن ما نبصره من الأشياء هو حقائق ثابتة في الوجود، ونفس الأمر فطرة عقلية، وإنكارُ السوفسطائيةِ ثبوتَ المحسوساتِ في نفسِ الأمرِ خلافُ الفطرةِ العقلية. ٩٠/٢١

١٥ـ فَوَصْفُ الإسلام بأنه فطرة الله معناه أن أصل الاعتقاد فيه جارٍ على مقتضى الفطرة العقلية.

وأما تشريعاته وتفاريعه فهي: إما أمور فطرية ـأيضاًـ أي جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به، وإما أن تكون لصلاحه مما لا ينافي فطرته.

وقوانين المعاملات فيه هي راجعة إلى ما تشهد به الفطرة؛ لأن طلب المصالح

من الفطرة، وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه، وقد بينته في كتابي المسمى (مقاصد الشريعة الإسلامية). ٩١/٢١

١٦ـ **واعلم أن شواهد الفطرة قد تكون واضحةً بينة، وقد تكون خفية**، كما يقتضيه كلام الشيخ ابن سينا؛ فإذا خفيت المعاني الفطرية، أو التبست بغيرها فالمضطلعون بتمييزها وكشفها هُمُ العلماءُ الحكماء الذين تمرسوا بحقائق الأشياء والتفريق بين متشابهاتها، وسبروا أحوال البشر، وتعرضت أفهامهم زماناً لتصاريف الشريعة، وتوسموا مراميَها، وغاياتها وعصموا أنفسهم بوازع الحق عن أن يميلوا مع الأهواء. ٩١/٢١ـ٩٢

١٧ـ إن المجتمع الإنساني قد مني عصوراً طويلة بأوهام وعوائد ومألوفات أدخلها عليه أهل التضليل؛ فاختلطت عنده بالعلوم الحق، فتقاول الناس عليها، وارتاضوا على قبولها؛ فالتصقت بعقولهم التصاق العنكبوت ببيته؛ فتلك يخاف منها أن تُتَلقَّى بالتسليم على مرور العصور؛ فيعسر إقلاعهم عنها، وإدراكهم ما فيها من تحريف عن الحق؛ فليس لتمييزها إلا أهل الرسوخ أصحاب العلوم الصحيحة الذين ضربوا في الوصول إلى الحقائق كل سبيل، واستوضحوا خطيرها وسليمها؛ فكانوا للسابلة خير دليل.

وكون الإسلام هو الفطرة، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختص بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه.

أما أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية، وهذا ما أفاده قوله: ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾.

فالإسلام عام خالد مناسب لجميع العصور، وصالح بجميع الأمم، ولا

يستتب ذلك إلا إذا بنيت أحكامه على أصول الفطرة الإنسانية؛ ليكون صالحاً للناس كافة، وللعصور عامة، وقد اقتضى وصف الفطرة أن يكون الإسلام سمحاً يسراً؛ لأن السماحة واليسر مبتغى الفطرة. ٩٢/٢١

سورة لقمان

١ـ سميت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان؛ لأن فيها ذكر لقمان وحكمته، وجملاً من حكمته التي أدب بها ابنه.

وليس لها اسم غير هذا الاسم، وبهذا الاسم عُرِفَتْ بين القراء والمفسرين، ولم أقف على تصريح به فيما يروى عن رسول الله ﷺ بسند مقبول. ١٣٧/٢١

٢ـ وروى البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس: أنزلت سورة لقمان بمكة.

وهي مكية كلها عند ابن عباس في أشهر قوليه، وعليه إطلاق جمهور المفسرين.

وعن ابن عباس من رواية النحاس استثناء ثلاث آيات من قوله ـتعالىـ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وعن قتادة إلا آيتين إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

وفي تفسير الكواشي حكاية قول إنها مكية عدا آية نزلت بالمدينة وهي: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قائلاً لأن الصلاة والزكاة فرضت بالمدينة.

ورده البيضاوي على تسليم ذلك بأن فرضها بالمدينة لا ينافي تشريعها بمكة على غير إيجاب.

والمحقوق[1] يمنعون أن تكون الصلاة والزكاة فرضتا بالمدينة، فأما الصلاة فلا ريب في أنها فرضت على الجملة بمكة، وأما الزكاة ففرضت بمكة دون تعيين

١ـ هكذا في الأصل، والصواب: المحققون. (م)

أنصباء ومقادير، ثم عينت الأنصباء والمقادير بالمدينة.

ويتحصَّل من هذا أن القائل بأن آية: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ إلى آخرها نزلت بالمدينة قاله مِنْ قِبَلِ رأيه، وليس له سند يعتمد كما يؤذن به قوله؛ لأن الصلاة والزكاة الخ.

ثم هو يقتضي أن يكون صدر السورة النازل بمكة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الخ، ثم ألحق به ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. ١٣٧/٢١

٣- **وهذه السورة هي السابعة والخمسون** في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ.

وعدت آياتها ثلاثاً وثلاثين في عد أهل المدينة ومكة، وأربعاً وثلاثين في عد أهل الشام والبصرة والكوفة. ١٣٨/٢١

٤- **الأغراض التي اشتملت عليها هذه السورةُ** تتصل بسبب نزولها الذي تقدم ذِكْرُه أن المشركين سألوا عن قصة لقمان وابنه، وإذا جمعنا بين هذا وبين ما سيأتي عند قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ من أن المراد به النَّضْر بن الحارث؛ إذ كان يسافر إلى بلاد الفرس، فيقتني كتب اسْفَنْدِيار ورُسْتُمْ وبَهْرَام، وكان يقرؤها على قريش ويقول: يخبركم محمد عن عاد وثمود، وأحدثكم أنا عن رستم واسفنديار وبهرام؛ فَصُدِّرت هذه السورة بالتنويه بهدي القرآن؛ ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدىً وإرشادٌ للخير ومُثُلُ الكمال النفساني؛ فلا التفاتَ فيه إلى أخبارِ الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه؛ فكان صَدْرُ هذه السورة تمهيداً لقصة لقمان.

وقد تقدم الإلماع إلى هذا في قوله ـتعالىـ في أول سورة يوسف ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ ، ونَبَّهْتُ عليه في المقدمة السابعة بهذا التفسير.

وانتقل من ذلك إلى تسفيه النَّضر بنِ الحارث وقِصصِهِ الباطلة.

وابتُدِئَ ذكرُ لقمانَ بالتنويه بأن آتاه اللهُ الحكمةَ ، وأمره بشكر النعمة ، وأطيل الكلام في وصايا لقمانَ وما اشتملت عليه : من التحذير من الإشراك ، ومن الأمر ببر الوالدين ، ومن مراقبةِ الله؛ لأنه عليمٌ بخفيات الأمور ، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبرِ ، والتحذيرِ من الكبرِ والعجبِ ، والأمرِ بالاتسام بسمات المتواضعين في المشي والكلام.

وسلكت السورةُ أفانينَ ذاتَ مناسباتٍ لما تضمنته وصية لقمان لابنه ، وأُدْمج في ذلك تذكير المشركين بدلائل وحدانية الله ـتعالى ـ وبنعمه عليهم ، وكيف أعرضوا عن هديه ، وتمسكوا بما أَلْفَوا عليه آباءهم.

وذَكَرَتْ مزيةَ دين الإسلام ، وتسليةَ الرسول ﷺ بتمسك المسلمين بالعروة الوثقى ، وأنه لا يُحْزِنُه كُفْرُ مَنْ كفروا.

وانتظم في هذه السورة الردُّ على المعارضين للقرآن في قوله : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ وما بعدها ، وخُتِمَتْ بالتحذير من دعوة الشيطان ، والتنبيه إلى بطلان ادعاءِ الكهان عِلْم الغيب. ١٣٨/٢١ـ١٣٩

٥ـ **واللهو** : ما يقصد منه تشغيل البال ، وتقصير طول وقت البطالة دون نفع؛ لأنه إذا كانت في ذلك منفعة لم يكن المقصود منه اللهو بل تلك المنفعة.

و﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ ما كان من الحديث مراداً للهو؛ فإضافة ﴿لَهْوَ﴾ إلى ﴿الْحَدِيثِ﴾ على معنى من التبعيضية على رأي بعض النحاة ، وبعضهم لا

يثبت الإضافة على معنى من التبعيضية؛ فيردها إلى معنى اللام.

وتقدم اللهو في قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ في سورة الأنعام.

والأصح في المراد بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أنه النضر ابن الحارث؛ فإنه كان يسافر في تجارة إلى بلاد فارس؛ فيتلقى أكاذيب الأخبار عن أبطالهم في الحروب المملوءة أكذوبات، فيقصها على قريش في أسمارهم ويقول: إن كان محمد يحدثكم بأحاديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم واسفنديار وبهرام.

ومن المفرسين[1] من قال: إن النضر كان يشتري من بلاد فارس كتب أخبار ملوكهم، فيحدث بها قريشاً، أي بواسطة من يترجمها لهم.

ويشمل لفظ ﴿النَّاسِ﴾ أهلَ سامره الذين ينصتون لما يقصه عليهم كما يقتضيه قوله -تعالى- إثره: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

وقيل المراد بـ﴿مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ من يقتني القينات المغنيات.

روى الترمذي عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تبيعوا القينات، ولا تشتروهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام**».

في مثل ذلك أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية.

قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب إنما يروى من حديث القاسم عن أبي أمامة وعلي بن يزيد يضعف في الحديث سمعت محمداً يعني البخاري يقول:

١- هكذا في الأصل، والصواب: المفسرين. (م)

علي بن يزيد يضعف» اهـ.

وقال ابن العربي في العارضة: «في سبب نزولها قولان: **أحدهما:** أنها نزلت في النضر بن الحارث.

الثاني: أنها نزلت في رجل من قريش قيل هو ابن خطل اشترى جارية مغنية؛ فشغل الناس بها عن استماع النبيﷺ» اهـ.

وألفاظ الآية أنسب انطباقاً على قصة النضر بن الحارث.

ومعنى: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أنه يفعل ذلك ليلهي قريشاً عن سماع القرآن؛ فإن القرآن سبيل موصل إلى الله -تعالى- أي إلى الدين الذي أراده، فلم يكن قصده مجرد اللهو، بل تجاوزه إلى الصد عن سبيل الله، وهذا زيادة في تفظيع عمله.

وقرأ الجمهور (يضل) بضم الياء، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، أي ليزداد ضلالاً على ضلالة؛ إذ لم يكتف لنفسه بالكفر حتى أخذ يبث ضلاله للناس، وبذلك يكون مآل القراءتين متحد المعنى. **٢١/١٤٢-١٤٣**

٦- و(لقمان): اسم رجل حكيم صالح.

وأكثر الروايات في شأنه التي يعضد بعضها -وإن كانت أسانيدها ضعيفة- تقتضي أنه كان من السود، فقيل: هو من بلاد النوبة، وقيل: من الحبشة.

وليس هو لقمان بن عاد الذي قال المثل المشهور: «إحدى خُطيات لقمان».

والذي ذكره أبو المهوش الأسدي، أو يزيد بن عمر يصعق في قوله:

تراه يُطَوِّفُ الآفاق حرصاً ... ليأكل رأس لقمان بن عاد

ويعرف ذلك بلقمان صاحب النسور، وهو الذي له ابن اسمه (لقيم)[١].

وبعضهم ذكر أن اسم أبيه باعوراء، فسبق إلى أوهام بعض المؤلفين[٢] أنه المسمى في كتب اليهود بلعام بن باعوراء المذكور خبره في الإصحاحين ٢٢ و٢٣ من سفر العدد.

ولعل ذلك وَهْمٌ؛ لأن بلعام ذلك رجل من أهل مَدْين كان نبياً في زمن موسى -عليه السلام- فلعل التوهم جاء من اتحاد اسم الأب، أو من ظن أن بلعام يرادف معنى لقمان؛ لأن بلعام من البلع ولقمان من اللقم فيكون العرب سموه بما يرادف اسمه في العبرانية.

وقد اختلف السلف في أن لقمان المذكور في القرآن كان حكيماً أو نبياً.

فالجمهور قالوا: كان حكيماً صالحاً.

واعتمد مالك في الموطأ على الثاني، فذكره في جامع الموطأ مرتين بوصف لقمان الحكيم، وذلك يقتضي أنه اشتهر بذلك بين علماء المدينة.

وذكر ابن عطية: أن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكر، حسن اليقين، أحب الله -تعالى- فأحبه؛ فمنَّ عليه بالحكمة».

ويظهر من الآيات المذكورة في قصته هذه أنه لم يكن نبياً؛ لأنه لم يمتن عليه بوحي ولا بكلام الملائكة.

١- وهو المعني بالبيت الذي أنشده ابن بري:

لقيم بن لقمان من أخته ... فكان ابن أخت له وابنُها

٢- هو لاروس صاحب دوائر المعارف الفرنسية.

والاقتصار على أنه أوتي الحكمة يومئ إلى أنه ألهم الحكمة، ونطق بها، ولأنه لما ذكر تعليمه لابنه قال -تعالى-: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ وذلك مؤذنٌ بأنه تعليم، لا تبليغ تشريع.

وذهب عكرمة والشعبي: أن لقمان نبي، ولفظ الحكمة يسمح بهذا القول؛ لأن الحكمة أطلقت على النبوءة في كثير من القرآن كقوله في داود: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.

وقد فُسِّرت الحكمة في قوله -تعالى-: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ بما يشمل النبوءة.

وإن الحكمة معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، وأعلاها النبوءة؛ لأنها علم بالحقائق مأمون من أن يكون مخالفاً لما هي عليه في نفس الأمر؛ إذ النبوءة متلقاة من الله الذي لا يعزب عن عمله شيء.

وسيأتي أن إيراد قوله -تعالى-: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ في أثناء كلام لقمان يساعد هذا القول.

وذكر أهل التفسير والتاريخ أنه كان في زمن داود.

وبعضهم يقول: إنه كان ابن أخت أيوب، أو ابن خالته؛ فتعين أنه عاش في بلاد إسرائيل.

وذكر بعضهم أنه كان عبداً، فأعتقه سيده.

وذكر ابن كثير عن مجاهد: أن لقمان كان قاضياً في بني إسرائيل في زمان داود -عليه السلام- ولا يوجد ذكر ذلك في كتب الإسرائيليين.

قيل: كان راعياً لغنم، وقيل: كان نجاراً، وقيل: خياطاً.

وفي تفسير ابن كثير عن ابن وهب أن لقمان كان عبداً لبني الحسحاس، وبنو الحسحاس من العرب، وكان من عبيدهم سحيم العبد الشاعر المخضرم الذي قتل في مدة عثمان.

وحكمة لقمان مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال، والمقربة للخفيات بأحسن الأمثال.

وقد عُنِي بها أهل التربية وأهل الخير، وذكر القرآن منها ما في هذه السورة، وذكر منها مالك في الموطأ بلاغين في كتاب الجامع، وذكر حكمة له في كتاب جامع العتبية، وذكر منها أحمد بن حنبل في مسنده ولا نعرف كتاباً جمع حكمة لقمان.

وفي تفسير القرطبي قال وهب بن منبه: قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب.

ولعل هذا إن صح عن وهب بن منبه كان مبالغة في الكثرة. ٢١/١٤٨-١٥٠

٧- **وكان لقمان معروفاً عند خاصة العرب،** قال ابن إسحاق في السيرة: «قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجاً أو معتمراً، فتصدى له رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي فقال له رسول الله ﷺ: وما معك؟ قال: مجلة لقمان، فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها علي، فعرضها عليه، فقال: «**إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله**».

قال ابن إسحاق: فقدم المدينة، فلم يلبث أن قتلته الخزرج، وكان قتله قبل يوم بعاث، وكان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قومه يدْعُونه الكامل» اهـ.

وفي الاستيعاب لابن عبدالبر: «أنا شاك في إسلامه كما شك غيري».

وقد تقدم في صدر الكلام على هذه السورة أن قريشاً سألوا رسول الله ﷺ عن لقمان وابنه، وذلك يقتضي أنه كان معروفاً للعرب.

وقد انتهى إليَّ حين كتابة هذا التفسير من حكم لقمان المأثورة ثمان وثلاثون حكمة غير ما ذكر في هذه الآية، وسنذكرها عند الفراغ من تفسير هذه الآيات. ١٥١_١٥٠/٢١

٨ـ **وفائدة ذكر الحال بقوله: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾** الإشارة إلى أن قوله هذا كان لتلبس ابنه بالإشراك، وقد قال جمهور المفسرين: إن ابن لقمان كان مشركاً فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده؛ فإن الوعظ زجر مقترن بتخويف.

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾.

ويعرف المزجور عنه بمتعلق فعل الموعظة؛ فتعين أن الزجر هنا عن الإشراك بالله.

ولعل ابن لقمان كان يدين بدين قومه من السودان، فلما فتح الله على لقمان بالحكمة والتوحيد أبى ابنه متابعته، فأخذ يعظه حتى دان بالتوحيد، وليس استيطان لقمان بمدينة داود مقتضياً أن تكون عائلته تدين بدين اليهودية.

وأصل النهي عن الشيء أن يكون حين التلبس بالشيء المنهي عنه، أو عند مقاربة التلبس به، والأصل أن لا ينهى عن شيء منتف عن المنهي.

وقد ذكر المفسرون اختلافاً في اسم ابن لقمان؛ فلا داعي إليه.

وقد جمع لقمان في هذه الموعظة أصول الشريعة وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس. ١٥٤/٢١

٩ـ **والأمر بأن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر يقتضي إيتان[1] الآمر وانتهاءه في نفسه؛** لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر، ومصالح ومفاسد؛ فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية من أمره الناس ونهيه إياهم.

فهذه كلمة جامعة من الحكمة والتقوى؛ إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخير، وبثه في الناس، وكفه عن الشر، وزجره الناس عن ارتكابه، ثم أعقب ذلك بأن أمره بالصبر على ما يصيبه.

ووجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يَجُرَّان للقائم بهما معاداةً من بعض الناس، أو أذى من بعض؛ فإذا لم يصبر على ما يصيبه من جراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو شك أن يتركهما.

ولما كانت فائدةُ الصبرِ عائدةً على الصابر بالأجر العظيم عُدَّ الصبر هنا في عداد الأعمال القاصرة على صاحبها، ولم يُلْتَفَتْ إلى ما في تحمل أذى الناس من حسن المعاملة معهم حتى يذكر الصبر مع قوله: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لأن ذلك ليس هو المقصود الأول من الأمر بالصبر.

والصبر: هو تحمل ما يحل بالمرء مما يؤلم أو يحزن، وقد تقدم في قوله ـتعالى ـ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ في سورة البقرة. ٢١/١٦٥

١٠ـ وهذا وفاء بما وعدت به عند الكلام على قوله ـتعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ من ذكر ما انتهى إليه تتبعي لما أثر من حكمة لقمان غير ما في

١ـهكذا في الأصل، والصواب: إتيان. (م)

هذه السورة، وقد ذكر الآلوسي في تفسيره منها ثمانياً وعشرين حكمة وهي: قوله لابنه: أي بني إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها أناس كثير؛ فاجعل سفينتك فيها تقوى الله -تعالى- وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل على الله -تعالى- لعلك أن تنجو، ولا أراك ناجياً.

وقوله: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله -عز وجل- حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله -تعالى- بذلك عزاً، والذل في طاعة الله -تعالى- أقرب من التعزز بالمعصية.

وقوله: ضَرْبُ الوالدِ لولده كالسماد للزرع.

وقوله: يا بني إياك والدَّينَ؛ فإنه ذل النهار، وهمُّ الليل.

وقوله: يا بني ارجُ الله -عز وجل- رجاءً لا يُجَرِّيك على معصيته -تعالى- وخف الله -سبحانه- خوفاً لا يؤيسك من رحمته -تعالى شأنه-.

وقوله: من كذب ذهب ماء وجهه، ومن ساء خلقه كثر غمه، ونقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم.

وقوله: يا بني حملت الجندل والحديد، وكل شيء ثقيل؛ فلم أحمل شيئاً هو أثقل من جار السوء، وذقت المرار؛ فلم أذق شيئاً هو أمر من الفقر.

يا بني لا ترسل رسولك جاهلاً؛ فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك.

يا بني إياك والكذب؛ فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يغلي صاحبه.

يا بني احضر الجنائز، ولا تحضر العرس؛ فإن الجنائز تذكرك الآخرة، والعرس يشهيك الدنيا.

يا بني لا تأكل شبعاً على شبع؛ فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله.

يا بني لا تكن حلواً فَتُبلع ، ولا تكن مراً فَتُلْفَظ.

وقوله لابنه: لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور في أمرك العلماء.

وقوله: لا خير لك في أن تتعلم ما لم تعلم ولما تعمل بما قد علمت؛ فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً ، فحمل حزمة ، وذهب يحملها ، فعجز عنها ، فَضَمَّ إليها أخرى.

وقوله: يا بني إذا أردت أن تواخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك؛ فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره.

وقوله: لتكن كلمتُك طيبةً ، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.

وقوله: يا بني أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ، ولا بد لك منه.

يا بني كن كمن لا يبتغي محمدة الناس ، ولا يكسب ذمهم؛ فنفسه منه في عناء ، والناس منه في راحة.

وقوله: يا بني امتنع بما يخرج من فيك؛ فإنك ما سكتَّ سالمٌ ، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك.

وأنا أُقَفِّي عليها ما لم يذكره الآلوسي.

فمن ذلك ما في الموطأ فيما جاء في طلب العلم من كتاب الجامع: مالك أنه بلغه أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يحيي القلوب بنور العلم كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

وفيه فيما جاء في الصدق والكذب من كتاب الجامع أنه بلغه أنه قيل للقمان:

ما بلغ بك ما نرى -يريدون الفضل- فقال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني.

وفي جامع المستخرجة للعتبي قال مالك: بلغني أن لقمان قال لابنه: يا بني ليكن أول ما تفيد من الدنيا بعد خليل صالح امرأة صالحة.

وفي أحكام القرآن لابن العربي عن مالك: أن لقمان قال لابنه: يا بني إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون، وهم إلى الآخرة سراعاً يذهبون، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت واستقبلت الآخرة، وإن داراً تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج عنها.

وقال: ليس غنىً كصحة، ولا نعمة كطيب نفس.

وقال: يا بني لا تجالس الفجار، ولا تماشِهِم، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء، فيصيبك معهم.

وقال: يا بني جالس العلماء وماشِهِمْ عسى أن تنزل عليهم رحمة؛ فتصيبك معهم.

وفي الكشاف: أنه قال لرجل ينظر إليه: إن كنت تراني غليظ الشفتين؛ فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض.

وأن مولاه أمره بذبح شاة، وأن يأتيه بأطيب مضغتين، فأتاه باللسان والقلب، ثم أمره بذبح أخرى وأن ألق منها أخبث مضغتين؛ فألقى اللسان والقلب، فسأله عن ذلك، فقال: هما أطيب ما فيها إذا طابا، وأخبث ما فيها إذا خبثا.

ودخل على داود وهو يسرد الدروع، فأراد أن يسأله عماذا يصنع، فأدركته

الحكمة، فسكت، فلما أتمها داود لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت، فقال لقمان: الصمت حكمة، وقليل فاعله.

وفي تفسير ابن عطية: قيل للقمان: أي الناس شر؟ فقال: الذي لا يبالي أن يراه الناس سيئاً أو مسيئاً.

وفي تفسير القرطبي: كان لقمان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفي إذا كفيت؟

وفيه: إن الحاكم بأشد المنازل وكدرها؛ يغشاه المظلوم من كل مكان إن يصب فبالحريِّ أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة.

ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة تَفُتْهُ الدنيا ولا يصب الآخرة.

وفي تفسير البيضاوي: أن داود سأل لقمان: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت في يدي غيري.

وفي درة التنزيل المنسوب لفخر الدين الرازي: قال لقمان لابنه: إن الله رضيني لك، فلم يوصني بك، ولم يرضك لي؛ فأوصاك بي.

وفي الشفاء لعياض: قال لقمان لابنه: إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وفي كتاب آداب النكاح لقاسم بن يأمون التليدي الأخماسي[١]: أن من وصية لقمان: يا بني إنما مثل المرأة الصالحة كمثل الدهن في الرأس يلين العروق، ويُحَسِّن الشعر، ومثلها كمثل التاج على رأس الملك، ومثلها كمثل اللؤلؤ

١ـ بالمكتبة الأحمدية عدد ٢١٢٨ وطبع في فاس سنة ١٣١٧.

والجوهر لا يدري أحد ما قيمته.

ومثل المرأة السوء كمثل السيل لا ينتهي حتى يبلغ منتهاه: إذا تكلمت أسمعت، وإذا مشت أسرعت، وإذا قعدت رفعت، وإذا غضبت أسمعت، وكل داء يبرأ إلا داء امرأة السوء.

يا بني لأَنْ تساكنَ الأسد والأَسْوَد[1] خيرٌ من أن تساكنها؛ تبكي وهي الظالمة، وتحكم وهي الجائرة، وتنطق وهي الجاهلة، وهي أفعى بلدغها.

وفي مجمع البيان للطبرسي: يا بني سافر بسيفك، وخفك، وعمامتك، وخبائك، وسقائك، وخيوطك، ومخرزك، وتزود معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقاً إلا في معصية الله -عز وجل-.

يا بني إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم، وأكثر التبسم في وجوههم، وكن كريماً على زادك بينهم، فإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنهم، واستعمل طول الصمت وكثرة الصلاة، وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء أو زاد، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم، واجهد رأيك لهم إذا استشاروك، ثم لا تعزم حتى تَثَبَّت وتنظر، ولا تجب في مشورة حتى تقوم فيها وتقعد، وتنام وتأكل، وتصلي، وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك في مشورته؛ فإنَّ مَنْ لم يمحضِ النصيحة من استشاره سلبه الله رأيه، وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سناً، وإذا أمروك بأمر وسألوك شيئاً فقل: نعم ولا تقل: لا؛ فإن لا عِيٌّ ولؤم، وإذا تحيرتم في الطريق فأنزلوا، وإذا شككتم في القصد فقفوا وتآمروا، وإذا رأيتم شخصاً

١ـ يريد ذكَر الحيات.

واحداً فلا تسألوه عن طريقكم، ولا تسترشدوه؛ فإن الشخص الواحد في الفلاة مريب لعله يكون عين اللصوص، أو يكون هو الشيطانَ الذي حيركم.

واحذروا الشخصين -أيضاً- إلا أن تروا ما لا أرى؛ لأن العاقل إذا أبصر بعينه شيئاً عرف الحق منه، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

يا بني إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء، صلِّها واسترح منها؛ فإنها دَيْنٌ، وصل في جماعة ولو على رأس زج، وإذا أردتم النزول فعليكم من بقاع الأرض بأحسنها لوناً، وألينها تربة، وأكثرها عشباً.

وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس، وإذا أردت قضاء حاجتك فأبعد المذهب في الأرض، وإذا ارتحلت فصلِّ ركعتين ثم ودِّع الأرض التي حللت بها، وسلِّم على أهلها؛ فإن لكل بقعة أهلاً من الملائكة، وإن استطعت أن لا تأكل طعاماً حتى تبتدئ، فتتصدق منه فافعل.

وعليك بقراءة كتاب الله -لعله يعني الزبور- ما دمت راكباً، وعليك بالتسبيح ما دمت عاملاً عملاً، وعليك بالدعاء ما دمت خالياً، وإياك والسير في أول الليل إلى آخره، وإياك ورفعَ الصوتِ في مسيرك.

فقد استقصينا ما وجدنا من حكمة لقمان مما يقارب سبعين حكمة. ٢١/١٦٩-١٧٣

١١- **ومعنى حصر مفاتح الغيب في هذه الخمسة**: أنها هي الأمور المغيبة المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم، وأن التعبير عنها بالمفاتح أنها تكون مجهولة للناس؛ فإذا وقعت فكأن وقُوعَها فَتْحٌ لما كان مغلقاً، وأما بقية أحوال الناس فخفاؤها عنهم متفاوت، ويمكن لبعضهم تعيينها مثل تعيين يوم كذا للزفاف،

ويوم كذا للغزو، وهكذا مواقيت العبادات والأعياد، وكذلك مقارنات الأزمنة مثل: يوم كذا مدخل الربيع؛ فلا تجد مغيبات لا قِبَل لأحد بمعرفة وقوعها من أحوال الناس في هذا العالم غير هذه الخمسة.

فأما في العوالم الأخرى وفي الحياة الآخرة فالمغيبات عن علم الناس كثيرة، وليست لها مفاتح علم في هذا العالم. ١٩٨/٢١

سورة السجدة

١ - **أشهر أسماء هذه السورة هو (سورة السجدة)** وهو أخصر أسمائها، وهو المكتوب في السطر المجعول لاسم السورة من المصاحف المتداولة.

وبهذا الاسم ترجم لها الترمذي في جامعه، وذلك بإضافة كلمة (سورة) إلى كلمة (السجدة).

ولا بد من تقدير كلمة ﴿أَلَمْ﴾ محذوفة للاختصار؛ إذ لا يكفي مجرد إضافة سورة إلى السجدة في تعريف هذه السورة؛ فإنه لا تكون سجدة من سجود القرآن إلا في سورة من السور.

وتسمى -أيضاً- ﴿أَلَمْ تَنزِيلُ﴾ روى الترمذي عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿أَلَمْ(١)تَنزِيلُ﴾ و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.

وتسمى (ألم تنزيل السجدة) وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة كان النبي ﷺ يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر (ألم تنزيل السجدة) و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾.

قال شارحو صحيح البخاري ضبط اللام من كلمة ﴿تَنزِيلُ﴾ بضمة على الحكاية، وأما لفظ «السجدة» في هذا الحديث فقال ابن حجر: هو بالنصب، وقال العيني والقسطلاني: بالنصب على أنه عطف بيان، يعني أنه بيان للفظ ﴿أَلَمْ تَنزِيلُ﴾.

وهذا بعيد؛ لأن لفظ السجدة ليس اسماً لهذه السورة إلا بإضافة (سورة) إلى

(السجدة) فالوجه أن يكون لفظ (السجدة) في كلام أبي هريرة مجروراً بإضافة مجموع ﴿ أَلَمْ تَنزِيلُ ﴾ إلى لفظ (السجدة)، وسأبين كيفية هذه الإضافة.

وعنونها البخاري في صحيحه «سورة تنزيل السجدة».

ويجب أن يكون ﴿ تَنزِيلُ ﴾ مضموناً على حكاية لفظ القرآن، فتميزت هذه السورة بوقوع سجدة تلاوة فيها من بين السور المفتتحة بـ﴿ أَلَمْ ﴾ فلذلك فمن سماها (سورة السجدة) عنى تقدير مضاف أي سورة (ألم السجدة). ٢٠٢_٢٠١/٢١

٢_ **وتسمى هذه السورة _أيضاً_** (سورة المضاجع) لوقوع لفظ ﴿ الْمَضَاجِعِ ﴾ في قوله _تعالى_: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴾.

وفي تفسير القرطبي عن مسند الدرامي[1] أن خالد بن معدان[2] سماها «المنجية».

قال: «بلغني أن رجلاً يقرؤها ما يقرأ شيئاً غيرها، وكان كثير الخطايا، فنشرت جناحها وقالت: رب اغفر له؛ فإنه كان يكثر من قراءتي؛ فشفعها الرب فيه وقال: اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وارفعوا له درجة» اهـ. ٢٠٣/٢١

٣_ وهي مكية في إطلاق أكثر المفسرين، وإحدى روايتين عن ابن عباس، وفي رواية أخرى عنه استثناء ثلاث آيات مدنية وهي: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ﴾ إلى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

١_ الصواب: الدارمي. (م)

٢_ خالد بن معدان الكلاعي الحمصي أبو عبدالله من فقهاء التابعين، توفي سنة ثلاث أو أربع أو ثمان ومائة، روى عن جماعة من الصحابة مرسلاً.

قيل: نزلت يوم بدر في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة وسيأتي إبطاله.

وزاد بعضهم آيتين: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ إلى ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لما روي في سبب نزولها وهو ضعيف.

والذي نعول عليه أن السورة كلها مكية وأن ما خالف ذلك إنْ هو إلا تأويل، أو إلحاق خاص بعام كما أصلنا في المقدمة الخامسة.

نزلت بعد سورة النحل وقبل سورة نوح، وقد عدت الثالثة والسبعين في النزول.

وعدت آياتها عند جمهور العادين ثلاثين، وعدها البصريون سبعاً وعشرين. ٢١/٢٠٣ـ٢٠٤

٤ـ **من أغراض هذه السورة**: أوَّلُها التنويهُ بالقرآن أنه منزلٌ من عند الله، وتوبيخُ المشركين على ادعائهم أنه مفترىً بأنهم لم يسبقْ لهم التشرفُ بنزول كتاب.

والاستدلالُ على إبطال إلهية أصنامهم بإثبات انفراد الله بأنه خالق السماوات والأرض، ومُدَبِّرُ أمورهما.

وذكرُ البعثِ، والاستدلالُ على كيفيةِ بدءِ خَلْقِ الإنسان ونسلِه، وتنظيرُه بإحياء الأرض، وأُدْمِج في ذلك أن إحياءَ الأرضِ نعمةٌ عليهم كفروا بمسديها.

والإنحاءُ على الذين أنكروه ووعيدُهم.

والثناءُ على المصدقين بآيات الله وَوَعْدُهم، ومقابلةُ إيمانهم بكفر المشركين، ثم إثباتُ رسالةِ رسولٍ عظيمٍ قبل محمد ﷺ هُدِيَ به أمةٌ عظيمة.

والتذكيرُ بما حل بالمكذبين السابقين؛ ليكون ذلك عظةً للحاضرين، وتهديدهم

بالنصر الحاصل للمؤمنين.

وخُتِمَ ذلك بانتظار النصر.

وَأَمْرُ الرسولِ ﷺ بالإعراض عنه؛ تحقيراً لهم، وَوَعْدُه بانتظار نصره عليهم.

ومن مزايا هذه السورةِ وفضائلها ما رواه الترمذي والنسائي وأحمد والدارمي عن جابر بن عبد الله قال: «كان النبي لا ينام حتى يقرأ ﴿الم تَنْزِيْلُ﴾ السجدة و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾». ٢١/٢٠٤ـ٢٠٥

٥ـ ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: أي لا تبلغ نفس من أهل الدنيا معرفة ما أعد الله لهم قال النبي ﷺ قال الله ـتعالىـ: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**».

فدل على أن المراد بـ﴿نَفْسٌ﴾ في هذه الآية أصحاب النفوس البشرية؛ فإن مدركات العقول منتهية إلى ما تدركه الأبصار من المرئيات من الجمال والزينة، وما تدركه الأسماع من محاسن الأقوال، ومحامدها، ومحاسن النغمات، وإلى ما تبلغ إليه المتخيلات من هيئات يركبها الخيال من مجموع ما يعهده من المرئيات والمسموعات مثل الأنهار من عسل أو خمر أو لبن، ومثل القصور والقباب من اللؤلؤ، ومثل الأشجار من زبرجد، والأزهار من ياقوت، وتراب من مسك وعنبر؛ فكل ذلك قليل في جانب ما أعد لهم في الجنة من هذه الموصوفات، ولا تبلغه صفات الواصفين؛ لأن منتهى الصفة محصور فيما تنتهي إليه دلالات اللغات مما يخطر على قلوب البشر؛ فلذلك قال النبي ﷺ: «**ولا خطر على قلب بشر**» وهذا كقولهم في تعظيم شيء: هذا لا يعلمه إلا الله. ٢١/٢٢٩ـ٢٣٠

سورة الأحزاب

١ـ **هكذا سميت (سورة الأحزاب)** في المصاحف وكتب التفسير والسنة، وكذلك رويت تسميتها عن ابن عباس وأبي بن كعب بأسانيد مقبولة، ولا يعرف لها اسم غيره، ووجه التسمية أن فيها ذكر أحزاب المشركين من قريش ومن تحزب معهم أرادوا غزو المسلمين في المدينة فرد الله كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال.

وهي مدنية بالاتفاق، وسيأتي عن ابن عباس أن آية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ الخ، نزلت في تزويج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة في مكة.

وهي التسعون في عداد السور النازلة من القرآن، نزلت بعد سورة الأنفال، وقبل سورة المائدة.

وكان نزولها على قول ابن إسحاق أواخر سنة خمس من الهجرة وهو الذي جرى عليه ابن رشد في البيان والتحصيل.

وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك: أنها كانت سنة أربع وهي سنة غزوة الأحزاب وتسمى غزوة الخندق حين أحاط جماعات من قريش وأحابيشهم[١] وكنانة وغطفان وكانوا عشرة آلاف وكان المسلمون ثلاثة آلاف وعقبتها غزوة قريظة والنضير.

وعدد آيها ثلاث وسبعون باتفاق أصحاب العدد. ٢٤٥/٢١

٢ـ **وكون القرآن قد تلاشى** منه كثير هو أصل من أصول الروافض؛ ليطعنوا به

---

١ ـ أحابيش قريش هم بنو المصطلق، وبنو الهوان اجتمعوا عند جبل بمكة يقال له حُبيش بضم الحاء وسكون الباء فحالفوا قريشاً أنهم يد على غيرهم.

في الخلفاء الثلاثة، والرافضة يزعمون أن القرآن مستودع عند الإمام المنتظر، فهو الذي يأتي بالقرآن وَقْرَ بعير.

وقد استوعب قولهم واستوفى إبطاله أبو بكر بن العربي في كتاب العواصم من القواصم. ٢٤٧/٢١

٣ـ **أغراض هذه السورة**: لكثير من آيات هذه السورة أسبابٌ لنزولها، وأكثرُها نزل للرد على المنافقين أقوالاً قصدوا بها أذى النبيﷺ.

وأهم أغراضها: الردُّ عليهم قولَهم لما تزوج النبيﷺ زينبَ بنتَ جحشٍ بعد أن طلَّقها زيدُ بنُ حارثةَ فقالوا: تزوج محمدٌ امرأةَ ابنِه وهو ينهى الناس عن ذلك؛ فأنزل الله ـتعالىـ إبطال التبني.

وأن الحقَّ في أحكام الله؛ لأنه الخبير بالأعمال، وهو الذي يقول الحق.

وأن ولايةَ النبيﷺ للمؤمنين أقوى ولاية، ولأزواجه حُرْمَةُ الأمهاتِ لهم، وتلك ولايةٌ مِنْ جعْل الله؛ فهي أقوى وأشدُّ من ولايةِ الأرحام.

وتحريضُ المؤمنين على التمسك بما شرع الله لهم؛ لأنه أخَذَ العهدَ بذلك على جميع النبيين.

والاعتبارُ بما أظهره الله من عنايته بنصر المؤمنين على أحزاب أعدائهم من الكفرة والمنافقين في وقعة الأحزاب، ودفعُ كيدِ المنافقين.

والثناءُ على صدق المؤمنين، وثباتِهم في الدفاع عن الدين.

ونعمةُ اللهِ عليهم بأن أعطاهم بلادَ أهلِ الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب.

وانْتُقِلَ من ذلك إلى أحكامٍ في معاشرة أزواج النبيﷺ وذكر فضلهن وفضل

آل النبي ﷺ وفضائلِ أهل الخير من المسلمين والمسلمات.

وتشريعٌ في عدة المطلقة قبل البناء.

وما يسوغُ لرسول الله ﷺ من الأزواج، وحكمُ حجابِ أمهات المؤمنين، ولُبْسةُ المؤمنات إذا خرجن.

وتهديدُ المنافقين على الإرجاف بالأخبار الكاذبة.

وخُتِمَت السورةُ بالتنويه بالشرائع الإلهية؛ فكان ختامُها من ردِّ العَجُزِ على الصدر؛ لقوله في أولها ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾.

وتخلل ذلك مستطرداتٌ من الأمر بالائتساء بالنبي ﷺ.

وتحريضُ المؤمنين على ذكر الله، وتنزيهه؛ شكراً له على هديه، وتعظيمُ قَدْرِ النبي ﷺ عند الله وفي الملأ الأعلى، والأمرُ بالصلاةِ عليه والسلام.

ووعيدُ المنافقين الذين يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين.

والتحذيرُ من التورط في ذلك؛ كيلا يقعوا فيما وقع فيه الذين آذوا موسى ـعليه السلامـ. ٢١/٢٤٧ـ٢٤٨

٤ـ **فإحباط الأعمال**: إبطال الاعتداد بالأعمال المقصود بها القربة، والمظنون بها أنها أعمال صالحة لمانع منع من الاعتداد بها في الدين.

وقد صار لفظ الحبط والحبوط من الألفاظ الشرعية الاصطلاحية بين علماء الفقه والكلام، فأطلق على عدم الاعتداد بالأعمال الصالحة بسبب الردة، أي الرجوع إلى الكفر، أو بسبب زيادة السيئات على الحسنات بحيث يستحق صاحب الأعمال العذاب بسبب زيادة سيئاته على حسناته بحسب ما قدر الله

لذلك، وهو أعلم به. ٢١/٢٩٩

٥ـ **وأما حفظ الفروج** فلأن شهوة الفرج شهوة جبلية، وهي في الرجل أشد، وقد أثنى الله على الأنبياء بذلك، فقال في يحيى: ﴿وَحَصُوراً﴾.

وقال في مريم: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وهذا الحفظ له حدود سنَّتْهَا الشريعةُ، فالمراد: حفظ الفروج على أن تستعمل فيما نُهي عنه شرعاً، وليس المراد: حفظها عن الاستعمال أصلاً وهو الرهبنة؛ فإن الرهبنةَ مدحوضةٌ في الإسلام بأدلة متواترة المعنى. ٢٢/٢٢

٦ـ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

وهذا مبدأ المقصود من الانتقال إلى حكم إبطال التبني، ودَحْضِ ما بناه المنافقون على أساسه الباطل؛ بناءً على كفر المنافقين الذين غمزوا مغامز في قضية تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة فقالوا: تزوج حليلة ابنه، وقد نهى عن تزوج حلائل الأبناء؛ ولذلك ختمت هذه القصة وتوابعها بالثناء على المؤمنين بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وبالإعراض عن المشركين والمنافقين، وعن أذاهم.٢٢/٢٩

٧ـ **واعلم أن المأثور الصحيح في هذه الحادثة:** أن زيد بن حارثة بقيت عنده زينب سنين؛ فلم تلد له، فكان إذا جرى بينه وبينها ما يجري بين الزوجين تارة من خلاف أدلت عليه بسؤددها، وغضَّت منه بولايته، فلما تكرر ذلك عزم على أن يطلقها، وجاء يعلم رسول الله ﷺ بعزمه على ذلك؛ لأنه تزوجها من عنده.

وروي عن علي زين العابدين: أن الله أوحى إلى النبيﷺ أنه سينكح زينب بنت جحش.

وعن الزهري: نزل جبريل على النبيﷺ يعلمه أن الله زوجه زينب بنت جحش، وذلك هو ما في نفسه.

وذكر القرطبي أنه مختار بكر بن العلاء القشيري[1] وأبي بكر بن العربي.

والظاهر عندي: أن ذلك كان في الرؤيا كما أرى أنه قال لعائشة: «**أتاني بك الملك في المنام في سرقة من حرير يقول لي: هذه امرأتك، فأكشف، فإذا هي أنت فأقول: إن يكن هذا من عند الله يُمضِه**».

فقول النبيﷺ لزيد: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ توفية بحق النصيحة، وهو أمر نصح، وإشارة بخير لا أمر تشريع؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا المقام متصرفٌ بحقِّ الولاء والصحبة لا بصفة التشريع والرسالة، وأداء هذه الأمانة لا يتأكد أنه كان يعلم أن زينبَ صائرةٌ زوجاً له؛ لأن علم النبي بما سيكون لا يقتضي إجراءه، وإرشاده، أو تشريعه بخلاف علمه أو ظنه؛ فإن النبيﷺ كان يعلم أن أبا جهل ـمثلاًـ لا يُؤْمِن ولم يمنعه ذلك أن يبلِّغه الرسالة، ويعاوده الدعوة، ولأن رغبته في حصول شيء لا تقتضي إجراء أمره على حسب رغبته إن كانت رغبته تخالف ما يحمل الناس عليه، كما كان يرغب أن يقوم أحد يقتل عبدالله بن سعد بن أبي سرح قبل أن يسمع إعلانه بالتوبة من ارتداده حين جاء به عثمان بن عفان يوم الفتح تائباً.

ولذلك كلِّه لا يعد تصميم زيد على طلاق زينب عصياناً للنبيﷺ لأن أمره في

١ـ هو من المالكية، توفي سنة ٣٤٤، ترجمته في المدارك.

ذلك كان على وجه التوفيق بينه وبين زوجه، ولا يلزم أحداً المصيرُ إلى إشارة المشير كما اقتضاه حديث بريرة مع زوجها مغيث إذ قال لها: «**لو رَاجَعْتِهِ؟** فقالت: يا رسول الله تأمرني؟ **قال: لا إنما أنا أشفع**، قالت: لا حاجة لي فيه».
٢٢/٣١ـ٣٢

٨ـ وقد رُوِيَتْ في هذه القصة أخبار مخلوطة؛ فإياك أن تتسرب إلى نفسك منها أغلوطة؛ فلا تُصْغِ ذِهْنَكَ إلى ما ألصقه أهل القصص بهذه الآية من تبسيط في حال النبي ﷺ حين أمر زيداً بإمساك زوجه؛ فإن ذلك من مختلقات القصاصين، فإما أن يكون ذلك اختلافاً من القصاص؛ لتزيين القصة، وإما أن يكون كله أو بعضه من أراجيف المنافقين وبهتانهم فتلقفه القصاص وهو الذي نجزم به.

ومما يدل لذلك أنك لا تجد فيما يؤثر من أقوال السلف في تفسير هذه الآية أثراً مسنداً إلى النبي ﷺ أو إلى زيد، أو إلى زينب، أو إلى أحد من الصحابة رجالِهم ونسائهم، ولكنها قَصَصٌ وأخبارٌ وقيل وقال.

ولسوء فهم الآية كَبُر أمرُها على بعض المسلمين، واستفزت كثيراً من الملاحدة وأعداء الإسلام من أهل الكتاب.

وقد تصدى أبو بكر بن العربي في الأحكام لوهن أسانيدها وكذلك عياض في الشفاء.

والآن نريد أن ننقل مجرى الكلام إلى التسليم بوقوع ما رُوي من الأخبار الواهية السند؛ لكي لا نترك في هذه الآية مهواة لأحد.

ومجموع القصة من ذلك: أن النبي ﷺ جاء بيت زيد يسأل عنه فرأى زينب متفضلة، وقيل: رفعت الريح ستار البيت فرأى النبي ـعليه الصلاة والسلامـ

زينب فجأةً على غير قصد، فأعجبه حُسْنُها، وسبح لله.

وأن زينب علمت أنه وقعت منه موقع الاستحسان وأن زيداً علم ذلك وأنه أحب أن يطلقها؛ ليؤثر بها مولاه النبيﷺ، وأنه لما أخبر النبيﷺ بذلك قال له: «**أمسك عليك زوجك**» وهو يود طلاقها في قلبه ويعلم أنها صائرة زوجاً له».

وعلى تفاوت أسانيده في الوهن أُلْقِيَ إلى الناس في القصة؛ فانتقل غَثُّه وسمينه، وتُحُمِّلَ خفه ورزينه، فأخذ منه كل ما وسعه فهمه ودينه. ولو كان كله واقعاً لما كان فيه مغمز في مقام النبوة.

فأما رؤيةُ زينبَ في بيت زيدٍ إن كانت عن عمد فذلك أنه استأذن في بيت زيد فإن الاستئذان واجب؛ فلا شك أنه رأى وجهها وأعجبته ولا أحسب ذلك لأن النساء لم يكن يسترن وجوههن قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (أي الوجه والكفين) وزيد كان من أشد الناس اتصالاً بالنبي، وزينب كانت ابنة عمته، وزوج مولاه ومتبناه، فكانت مختلطة بأهله، وهو الذي زوجها زيداً، فلا يصح أن يكون ما رآها إلا حين جاء بيت زيد، وإن كانت الريح رفعت الستر فرأى من محاسنها وزينتها ما لم يكن يراه من قبل ـ فكذلك لا عجب فيه؛ لأن رؤية الفجأة لا مؤاخذة عليها، وحصول الاستحسان عقب النظر الذي ليس بحرام أمر قهري لا يملك الإنسان صرفه عن نفسه، وهل استحسان ذات المرأة إلا كاستحسان الرياض والجنات والزهور والخيل ونحو ذلك مما سماه الله زينة إذا لم يتبعه النَّظّار نظرة.

وأما ما خطر في نفس النبي ﷺ من مودة تزوجها فإن وقع فما هو بخطب جليل؛ لأنه خاطر لا يملك المرء صرفَه عن نفسه؛ وقد علمت أن قوله:

﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ ليس بلوم، وأن قوله: ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ ليس فيه لوم ولا توبيخ على عدم خشية الله ولكنه تأكيد لعدم الاكتراث بخشية الناس.

وإنما تظهر مجالاتُ النفوس في ميادين الفتوة بمقدار مصابرتها على الكمال في مقاومة ما ينشأ عن تلك المرائي من ضعف في النفوس، وخور العزائم.

وكفاك دليلاً على تمكن رسول الله ﷺ من هذا المقام هو أفضل من ترسخ قدمه في أمثاله أنه لم يَزَلْ يراجعُ زيداً في إمساك زوجه مشيراً عليه بما فيه خير له، وزيد يرى ذلك إشارةً ونصحاً لا أمراً وشرعاً.

ولو صح أن زيداً علم مودة النبي ﷺ تزوج زينب فطلقها زيد لذلك دون أمر من النبي -عليه الصلاة والسلام- ولا التماس لما كان عجباً؛ فإنهم كانوا يؤثرون النبي ﷺ على أنفسهم، وقد تنازل له دِحْيَةُ الكلبيُّ عن صفية بنت حيي بعد أن صارت له في سهمه من مغانم خيبر، وقد عرض سعد بن الربيع على عبدالرحمن ابن عوف أن يتنازل له عن إحدى زوجتيه يختارها؛ للمؤاخاة التي آخى النبي ﷺ بينهما.

وأما إشارة النبي -عليه الصلاة والسلام- على زيد بإمساك زوجه مع علمه بأنها ستصير زوجة له فهو أداء لواجب أمانة الاستنصاح والاستشارة؛ وقد يشير المرء بالشيء يعلمه مصلحةً وهو يوقن أن إشارته لا تُمْتَثَلُ.

والتخليط بين الحالين تخليطٌ بين التصرف المستند لما تقتضيه ظواهر الأحوال وبين ما في علم الله في الباطن، وأشبه مقام به مقام موسى مع الخضر في القضايا الثلاث.

وليس هذا من خائنة الأعين -كما توهمه من لا يحسن- لأن خائنة الأعين المذمومة ما كانت من الخيانة والكيد.

وليس هو -أيضاً- من الكذب لأن قول النبي -عليه الصلاة والسلام- لزيد: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ لا يناقض رغبته في تزوجها، وإنما يناقضه لو قال: إني أحب أن تمسك زوجك، إذ لا يَخْفَى أن الاستشارة طلب النظر فيما هو صلاح للمستشير لا ما هو صلاح للمستشار.

ومن حق المستشار إعلام المستشير بما هو صلاح له في نظر المشير، وإن كان صلاح المشير في خلافه فضلاً على كون ما في هذه القصة إنما تخالف بين النصيحة وبين ما علمه الناصح من أن نصحه لا يؤثر.

فإن قلت: فما معنى ما روي في الصحيح عن عائشة أنها قالت: لو كان رسول الله كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ الآية.

قلت: أرادت أن رغبة النبي ﷺ في تزوج زينب أو إعلام الله إياه بذلك كان سراً في نفسه لم يطلع عليه أحدٌ؛ إذ لم يؤمر بتبليغه إلى أحد.

وعلى ذلك السر انبنى ما صدر منه لزيد في قوله: ﴿أمسك عليك زوجك﴾.

فلما طلقها زيد ورام تزوجها علم أن المنافقين سيرجفون بالسوء، فلما أمره الله بذكر ذلك للأمة وتبليغ خبره بلغه ولم يكتمه مع أنه ليس في كتمه تعطيل شرع، ولا نقص مصلحة؛ فلو كان كاتماً لكتم هذه الآية التي هي حكاية سر في نفسه وبينه وبين ربه -تعالى-.

ولكنه لما كان وحياً بلغه؛ لأنه مأمور بتبليغ كل ما أنزل إليه.

واعلم أن للحقائق نصابَها، وللتصرفات موانعها وأسبابها، وأن الناس قد تمتلكهم العوائد؛ فتحول بينهم وبين إدراك الفوائد، فإذا تفشت أحوال في

عاداتهم استحسنوها ولو ساءت، وإذا ندرت المحامد دافعوها إذا رامت مداخلة عقولهم وشاءت، وكل ذلك من تحريف الفطرة عن وضعها، والمباعدة بين الحقائق وشرعها.

ولما جاء الإسلام أخذ يغزو تلك الجيوش لِيَقْلَعَها من أقاصيها، وينزلها من صياصيها؛ فالحُسْنُ المشروعُ ما تشهد الفطرة لحسنه، والقبيح الممنوع الذي أماتته الشريعة وأمرت بدفنه. ٢٢/٣٥ـ٣٨

٩ـ **وقد أجمع الصحابة على أن محمداً ﷺ خاتم الرسل والأنبياء**، وعرف ذلك وتواتر بينهم وفي الأجيال من بعدهم، ولذلك لم يترددوا في تكفير مسيلمة والأسود العنسي؛ فصار معلوماً من الدين بالضرورة؛ فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ولو كان معترفاً بأن محمداً ﷺ رسول الله للناس كلهم.

وهذا النوع من الإجماع موجبُ العلم الضروري ما أشار إليه جميع علمائنا، ولا يدخل هذا النوع في اختلاف بعضهم في حجِّية الإجماع؛ إذ المختلف في حجيته هو الإجماع المستند لنظر وأدلة اجتهادية بخلاف المتواتر المعلوم بالضرورة.

وفي كلام الغزالي في خاتمة كتاب الاقتصاد في الاعتقاد مخالفة لهذا على ما فيه من قلة تحرير.

وقد حمل عليه ابن عطية حملة غير منصفة، وألزمه إلزاماً فاحشاً ينزه عنه علمه ودينه؛ فرحمة الله عليهما. ٢٢/٤٥

١٠ـ **ولذلك لا يتردد مسلم في تكفير من يثبت نبوةً لأحد بعد محمد ﷺ** وفي إخراجه من حظيرة الإسلام، ولا تعرف طائفة من المسلمين أقدمت على ذلك

إلا البابية[١] والبهائية[٢] وهما نحلتان مشتقة ثانيتهما من الأولى.

وكان ظهور الفرقة الأولى في بلاد فارس في حدود ستة مائتين وألف[٣] وتسربت إلى العراق، وكان القائم بها رجلاً من أهل شيراز يدعوه أتباعه السيد علي محمد كذا اشتهر اسمه، كان في أول أمره من غلاة الشيعة الإمامية أخذ عن رجل من المتصوفين اسمه الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي الذي كان ينتحل التصوف بالطريقة الباطنية وهي الطريقة المتلقاة عن الحلاج، وكانت طريقته تعرف بالشيخية، ولما اظهر نحلته علي محمد هذا لقب نفسه باب العلم؛ فغلب عليه اسم الباب، وعرفت نحلته بالبابية، وادعى لنفسه النبوءة وزعم أنه أوحي إليه بكتاب اسمه (البيان) وأن القرآن أشار إليه بقوله ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

وكتاب البيان مؤلف بالعربية الضعيفة، ومخلوط بالفارسية وقد حكم عليه بالقتل سنة ١٢٦٦ في تبريز.

وأما البهائية فهي شعبة من البابية تنسب إلى مؤسسها الملقب ببهاء الله واسمه

---

١ ـ هي فرقه ضالة، ونحلة كافرة، انبثقت من الشيعة الاثني عشرية، وظهرت في القرن الثالث عشر الهجري في إيران، على يد رجل شيعي، يدعى الميرزا علي محمد الشيرازي، الذي ظهر بفكرة الباب إلى المهدي المنتظر. (م)

٢ ـ البهائية هي: فرقة باطنية كافرة ظهرت في إيران في القرن الثالث عشر الهجري على يد حسين علي المازندراني الملقب بالبهاء.

والبهائية هي البابية السابقة؛ ولكنها انتقلت إلى مرحلة جديدة بعد مقتل الباب زعيم البابية؛ فالبهائية قامت على أنقاض البابية. (م)

٣ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: ستة وستين ومائتين وألف. (م)

ميرزا حسين علي من أهل طهران تتلمذ للباب بالمكاتبة، وأخرجته حكومة شاه العجم إلى بغداد بعد قتل الباب، ثم نقلته الدولة العثمانية من بغداد، إلى أدرنة، ثم إلى عكا، وفيما ظهرت نحلته وهم يعتقدون نبوءة الباب، وقد التف حوله أصحاب نحلة البابية وجعلوه خليفة الباب فقام اسمُ البهائية مقامَ اسمِ البابية؛ فالبهائية هم البابية.

وقد كان البهاء بني بناءً في جبل الكرمل؛ ليجعله مدفناً لرفات (الباب) وآلَ أمرُه إلى أن سجنته السلطنة العثمانية في سجن عكا؛ فلبث في السجن سبع سنوات، ولم يطلق من السجن إلا عندما أعلن الدستور التركي؛ فكان في عداد المساجين السياسيين الذين أطلقوا يومئذ، فرحل منتقلاً في أوربا وأمريكا مدة عامين، ثم عاد إلى حيفا فاستقر بها إلى أن توفي سنة ١٣٤٠.

وبعد موته نشأ شقاق بين أبنائه وإخوته؛ فتفرقوا في الزعامة، وتضاءلت نحلتهم.

فمن كان من المسلمين متبعاً للبهائية أو البابية فهو خارج عن الإسلام مرتد عن دينه تجري عليه أحكام المرتد، ولا يرث مسلماً ويرثه جماعة المسلمين، ولا ينفعهم قولهم: «إنا مسلمون» ولا نطقهم بكلمة الشهادة؛ لأنهم يثبتون الرسالة لمحمدﷺ ولكنهم قالوا بمجيء رسول من بعده.

ونحن كَفَّرنا الغُرابية من الشيعة لقولهم: «بأن جبريل أرسل إلى علي، ولكنه شُبِّه له محمد بعلي؛ إذ كان أحدهما أشبه بالآخر من الغراب بالغراب ـوكذبواـ فبلغ الرسالة إلى محمدﷺ».

فهم أثبتوا الرسالة لمحمدﷺ ولكنهم زعموه غير المعين من عند الله.

وتُشْبِهُ طقوسُ البهائية طقوسَ الماسونية إلا أن البهائية تنتسب إلى التلقي من

الوحي الإلهي؛ فبذلك فارقت الماسونية، وعُدَّت في الأديان والملل، ولم تعد في الأحزاب. ٢٢/٤٥ـ٤٧

١١ـ **والسين والتاء في: ﴿يَسْتَنكِحَهَا﴾ ليستا للطلب** بل هما لتأكيد الفعل كقول النابغة:

وهم قتلوا الطائى بالحجر عنوةً ... أبا جابر فاستنكحوا أم جابر

أي بنو حُنّ قتلوا أبا جابر الطائى فصارت أم جابر المزوجة بأبي جابر زوجة بني حُنّ، أي زوجة رجل منهم، وهي مثل السين والتاء في قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾. ٢٢/٦٩

١٢ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ﴾

لما بين الله في الآياتِ السابقةِ آدابَ النبيﷺ مع أزواجه قفَّاه في هذه الآية بآداب الأمة معهن، و صدر بالإشارة إلى قصة هي سبب نزول هذه الآية، وهي ما في صحيح البخاري و غيره عن أنس بن مالك قال: لما تزوج رسول اللهﷺ زينب ابنة جحش صنع طعاماً بخبز ولحم، ودعا القوم، فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام؛ فلم يقوموا؛ فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ليدخل فإذا القوم جلوس، فجعل النبيﷺ يخرج ثم يرجع، فانطلق إلى حجرة عائشة، فَتَقَرَّى حِجَرَ نسائه كلِّهن يسلم عليهن، ويسلمن عليه، ويدعون له، ثم إنهم قاموا، فانطلقت، فجئت، فأخبرت النبيﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تَدْخُلُوْا بُيُوْتَ النَّبِيِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾.

وفي حديث آخر في الصحيح عن أنس -أيضاً- أن عمر بن الخطاب ﷺ قال له: «يا رسول الله يدخل عليك البر و الفاجر، فلو أمرت أمهاتِ المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب».

وليس بين الخبرين تعارضٌ؛ لجواز أن يكون قول عمر كان قبل البناء بزينب بقليل، ثم عقبته قصة وليمة زينب، فنزلت الآية بإثرها.

وابتدئ شرعُ الحجاب بالنهي عن دخول بيوت النبيﷺ إلا لطعام دعاهم إليه؛ لأن النبي -عليه الصلاة و السلام- له مجلس يجلس في المسجد؛ فمن كان له مهم عنده يأتيه هنالك.

وليس ذكر الدعوة إلى طعام تقييداً لإباحة دخول بيوت النبيﷺ لا يدخلها إلا المدعو إلى طعام، و لكنه مثالٌ للدعوة، و تخصيصٌ بالذكر كما جرى في القضية التي هي سبب النزول، فيلحق به كل دعوة تكون من النبيﷺ وكل إذن منه بالدخول إلى بيته لغير قصد أن يطعم معه كما كان يقع ذلك كثيراً.

ومن ذلك قصة أبي هريرة حين استقرأ من عمر آية من القرآن وهو يطمع أن يدعوه عمر إلى الغداء، ففتح عليه الآية، فإذا رسول الله قائم على رأس أبي هريرة وقد عرف ما به، فانطلق به إلى بيته، و أمر له بعُسٍّ من لبن ثم ثانٍ، ثم ثالث، وإنما ذكر الطعام، إدماجاً؛ لتبيين آدابه، ولذلك ابتدئ بقوله: ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ مع أنه لم يقع مثله في قصة سبب النزول. ٢٢/٨١-٨٢

١٣- قال حماد بن زيد و إسماعيل بن أبي حكيم: هذه الآية أدبٌ أدَّبَ الله به الثقلاء.

وقال ابن أبي عائشة : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم.

ومعنى الثقل فيه هو إدخال أَحَدٍ القلقَ والغمَّ على غيره من جراء عمل لفائدة العامل، أو لعدم الشعور بما يلحق غيره من الحرج من جراء ذلك العمل.

وهو من مساوي الخلق، لأنه إن كان من عمد كان ضراً بالناس، وهو منهي عنه؛ لأنه من الأذى وهو ذريعة للتباغض عند نفاذ صبر المضرور؛ فإن النفوس متفاوتة في مقدار تحمل الأذى، ولأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ فعليه إذا أحس بأن قوله أو فعله يدخل الغم على غيره أن يكف عن ذلك ولو كان يجتني منه منفعة لنفسه؛ إذ لا يضر بأحد؛ لينتفع غيره إلا أن يكون لمن يأتي بالعمل حق على الآخر؛ فإن له طلبه مع أنه مأمور بحسن التقاضي، وإن كان إدخاله الغم على غيره عن غباوة وقلة تفطن له فإنه مذموم في ذاته، وهو يصل إلى حد يكون الشعور به بديهياً.

وللحكماء والشعراء أقوال كثيرة في الثقلاء طفحت بها كتب أدب الأخلاق.

ومعاملة الناس النبيﷺ بهذا الخلق أشدُّ بعداً عن الأدب؛ لأن للنبي ﷺ أوقاتاً لا تخلو ساعة منها عن الاشتغال بصلاح الأمة، ويجب أن لا يشغل أحدٌ أوقاته إلا بإذنه، ولذلك قال ـتعالىـ: ﴿ إلا أن يأذن لكم ﴾. ٢٢/٨٤ـ٨٥

١٤ـ وفي هذه الآية دليل على أن طعام الوليمة وطعام الضيافة ملك للمتضيف، وليس ملكاً للمدعوين، ولا للأضياف؛ لأنهم إنما أذن لهم في الأكل منه خاصة، ولم يملكوه؛ فلذلك لا يجوز لأحد رفع شيء من ذلك الطعام معه. ٢٢/٨٥

١٥ـ واعلم أن في ورود: ﴿ يُؤْذِي ﴾ هنا ما يبطل المثال الذي أورده ابن الأثير

في كتاب المثل السائر شاهداً على أن الكلمة قد تروق السامع في كلام، ثم تكون هي بعينها مكروهة للسامع، وجاء بكلمة: ﴿ يؤذي ﴾ في هذه الآية، ونظيرها (تؤذي) في قول المتنبي:

تلذ له المروءة وهي تُؤذي

وزعم أن وجودها في البيت يحط من قدر المعنى الشريف الذي تضمنه البيت، وأحال في الجزم بذلك على الطبع السليم، ولا أحسب هذا الحكم إلا غضباً من ابن الأثير لا تسوغه صناعة ولا يشهد به ذوق، ولقد صرف أئِمة الأدب هممهم إلى بحث شعر المتنبي ونقده؛ فلم يَعُدَّ عليه أحدٌ منهم هذا منتقداً، مع اعتراف ابن الأثير بأن معنى البيت شريف؛ فلم يبقَ له إلا أن يزعم أن كراهة هذا اللفظ فيه راجعة إلى أمر لفظي من الفصاحة، وليس في البيت شيءٌ من الإخلال بالفصاحة، وكأنه أراد أن يقفي على قدم الشيخ عبدالقاهر فيما ذكر في الفصل الذي جعله ثانياً من كتاب دلائل الإعجاز؛ فإن ما انتقده الشيخ في ذلك الفصل من مواقع بعض الكلمات لا يخلو من رجوع نقده إياها إلى أصول الفصاحة أو أصول تناسب معاني الكلمات بعضها مع بعض في نظم الكلام، وشتان ما بين الصنعتين. ٢٢/٨٩ـ٩٠

١٦ـ ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾.

والمعنى: ذلك أقوى طهارة لقلوبكم وقلوبهن؛ فإن قلوب الفريقين طاهرة بالتقوى وتعظيم حرمات الله وحرمة النبي ﷺ.

ولكن لما كانت التقوى لا تصل بهم إلى درجة العصمة أراد الله أن يزيدهم

منها بما يكسب المؤمنين مراتب من الحفظ الإلهي من الخواطر الشيطانية بقطع أضعف أسبابها، وما يقرِّب أمهات المؤمنين من مرتبة العصمة الثابتة لزوجهن ﷺ فإن الطيبات للطيبين بقطع الخواطر الشيطانية عنهن بقطع دابرها ولو بالفرض.

وأيضاً فإن للناس أوهاماً وظنوناً سُوأى تتفاوت مراتب نفوس الناس فيها صرامةً، ووهناً، ونفاقاً، وضعفاً، كما وقع في قضية الإفك المتقدمة في سورة النور؛ فكان شرع حجاب أمهات المؤمنين قاطعاً لكل تَقَوُّلٍ وإرجاف بعمد أو بغير عمد.

ووراء هذه الحكم كلِّها حكمةٌ أخرى سامية وهي زيادة تقرير أمومتهن للمؤمنين في قلوب المؤمنين التي هي أمومة جَعْلية شرعية بحيث أن ذلك المعنى الجعلي الروحي وهو كونهن فلانة أو فلانة؛ فيصبحن غير متصورات إلا بعنوان الأمومة؛ فلا يزال ذلك المعنى الروحي ينمي في النفوس، ولا تزال الصورة الحسية تتضاءل من القوة المدركة حتى يصبح معنى أمهات المؤمنين معنى قريباً في النفوس من حقائق المجردات كالملائكة، وهذه حكمة من حكم الحجاب الذي سنه الناس لملوكهم في القدم؛ ليكون ذلك أدخل لطاعتهم في نفوس الرعية. ٢٢/٩١ـ٩٢

١٧ـ ﴿ إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤) ﴾.

كلامٌ جامعٌ تحريضاً وتحذيراً، ومنبئٌ عن وعد ووعيد؛ فإن ما قبله قد حوى أمراً ونهياً، وإذ كان الامتثال متفاوتاً في الظاهر والباطن، وبخاصة في النوايا والمضمرات كان المقام مناسباً لتنبيههم بأن الله مطلع على كل حال من أحوالهم في ذلك، وعلى كل شيء؛ فالمراد من: ﴿ شَيْئاً ﴾ الأول شيء مما يبدونه أو يخفونه وهو يعم كل ما يبدو وما يخفى؛ لأن النكرة في سياق الشرط تعم، والجملة تذييل

لما اشتملت عليه من العموم في قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وإظهار لفظ شيء هنا دون إضمار؛ لأن الإضمار لا يستقيم؛ لأن الشيء المذكور ثانياً هو غير المذكور أولاً؛ إذ المراد بالثاني جميع الموجودات ـ والمراد بالأول خصوص أحوال الناس الظاهرة والباطنة؛ فالله عليم بكل كائن ومن جملة ذلك ما يبدونه ويخفونه من أحوالهم. ٩٥/٢٢

١٨ـ وجملة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ هي المقصودة، وما قبلها توطئة لها وتمهيداً؛ لأن الله لما حذَّر المؤمنين من كل ما يؤذي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعقبه بأن ذلك ليس هو أقصى حظِّهم من معاملة رسولهم أن يتركوا أذاه، بل حظهم أكبر من ذلك، وهو أن يصلوا عليه ويسلموا، وذلك هو إكرامهم لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما بينهم وبين ربهم؛ فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم بحضرته بدلالة الفحوى، فجملة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمنزلة النتيجة الواقعة بعد التمهيد.

وجيء في صلاة الله وملائكته بالمضارع الدال على التجديد والتكرير؛ ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم عقب ذلك مشيراً إلى تكرير ذلك منهم أسوة بصلاة الله وملائكته. ٩٧/٢٢

١٩ـ وقوله: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ القول فيه كالقول في: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ حكماً ومكاناً وصفةً؛ فإن صفته حُدِّدت بقول النبيﷺ: «**والسلام كما قد علمتم**».

فإن المعلوم هو صيغته التي في التشهد «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**» وكان ابن عمر يقول فيه بعد وفاة النبيﷺ: «**السلام على النبي**

ورحمة الله وبركاته» .

والجمهور أبقوا لفظه على اللفظ الذي كان في حياة النبي ـعليه الصلاة والسلامـ رعياً لما ورد عن النبي ـعليه الصلاة والسلامـ أنه حي يبلغه تسليم أمته عليه.

ومن أجل هذا المعنى أبقيت له صيغة التسليم على الأحياء وهي الصيغة التي يتقدم فيها لفظ التسليم على المتعلق به؛ لأن التسليم على الأموات يكون بتقديم المجرور على لفظ السلام.

وقد قال رسول الله للذي سلم فقال: عليك السلام يا رسول الله فقال له: «**إن عليك السلام تحية الموتى، فقل: السلام عليك**».

والتسليم مشهور في أنه التحية بالسلام، والسلام فيه بمعنى الأمان والسلامة، وجُعِل تحية في الأولين عند اللقاء مبادأة بالتأمين من الاعتداء والثار ونحو ذلك؛ إذ كانوا إذ اتقوا أحداً توجسوا خيفة أن يكون مضمراً شراً لملاقيه، فكلاهما يدفع ذلك الخوف بالإخبار بأنه مُلْقٍ على ملاقيه سلامة وأمناً، ثم شاع ذلك حتى صار هذا اللفظ دالاً على الكرامة والتلطف، قال النابغة:

أتاركة تدللها قطام ... وضنا بالتحية والسلام

١٠٢_١٠١/٢٢

٢٠ـ والآية تضمنت الأمر بشيئين: الصلاة على النبيﷺ والتسليم عليه، ولم تقتض جمعهما في كلام واحد وهما مُفَرَّقان في كلمات التشهد؛ فالمسلم مخير بين أن يقرن بين الصلاة والتسليم بأن يقول: «صلى الله على محمد والسلام عليه» أو أن يقول: «اللهم صلِّ على محمد والسلام على محمد» فيأتي في جانب التصلية

بصيغة طلب ذلك من الله ، وفي جانب التسليم بصيغة إنشاء السلام بمنزلة التحية له ، وبين أن يفرد الصلاة ، ويفرد التسليم وهو ظاهر الحديث الذي رواه عياض في الشفاء أن النبي ﷺ قال : « **لقيت جبريل فقال لي : أبشرك أن الله يقول : من سلم عليك سلمت عليه ، ومن صلى عليك صليت عليه** » .

وعن النووي أنه قال بكراهة إفراد الصلاة والتسليم ، وقال ابن حجر : « لعله أراد خلاف الأولى » .

وفي الاعتذار والمعتذر عنه نظر؛ إذ لا دليل على ذلك.

وأما أن يقال : « اللهم سلِّم على محمد » فليس بوارد فيه مسند صحيح ولا حسن عن النبي ﷺ ولم يرد عنه إلا بصيغة إنشاء السلام مثل ما في التحية ، ولكنهم تسامحوا في حالة الاقتران بين التصلية والتسليم فقالوا : « صلى الله عليه وسلم » لقصد الاختصار فيما نرى.

وقد استمر عليه عمل الناس من أهل العلم والفضل وفي حديث أسماء بنت أبي بكر المتقدم أنها قالت : « صلى الله على محمد وسلم » .

ومعنى تسليمِ الله عليه إكرامُه ، وتعظيمه؛ فإن السلام كناية عن ذلك.

وقد استحسن أئمة السلف أن يجعل الدعاء بالصلاة مخصوصاً بالنبي ﷺ .

وعن مالك : لا يصلى على غير نبينا من الأنبياء يريد أن تلك هي السنة ، وروي مثله عن ابن عباس ، وروي عن عمر بن عبدالعزيز : أن الصلاة خاصة بالنبيين كلهم. ٢٢/١٠٢ـ١٠٣

٢١ـ **وأنه يجوز إتباع آلهم وأصحابهم** وصالحي المؤمنين إياهم في ذلك دون استقلال.

هذا الذي استقر عليه اصطلاح أهل السنة ، ولم يقصدوا بذلك تحريماً ، ولكنه اصطلاح ، وتمييز لمراتب رجال الدين ، كما قصروا الرضى على الأصحاب وأئمة الدين ، وقصروا كلمات الإجلال نحو :تبارك وتعالى ، وجل جلاله ، على الخالق دون الأنبياء والرسل.

وأما الشيعة فإنهم يذكرون التسليم على علي وفاطمة وآلهما ، وهو مخالف لعمل السلف؛ فلا ينبغي اتباعهم فيه؛ لأنهم قصدوا به الغض من الخلفاء والصحابة. ١٠٣/٢٢

٢٢ـ **والإرجاف :** إشاعة الأخبار.

وفيه معنى كون الأخبار كاذبة أو مسيئة لأصحابها يعيدونها في المجالس؛ ليطمئن السامعون لها مرة بعد مرة بأنها صادقة؛ لأن الإشاعة إنما تقصد للترويج بشيء غير واقع أو مما لا يصدق به لاشتقاق ذلك من الرجف والرجفان وهو الاضطراب والتزلزل.

فالمرجفون قوم يتلقون الأخبار فيحدثون بها في مجالس ونواد ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل. ١٠٨/٢٢

٢٣ـ **والوجيه :** صفة مُشَبَّهة ، أي ذو الوجاهة ، وهي الجاه ، وحسن القبول عند الناس ، يُقال : وجُه الرجل ، بضم الجيم ، وجاهة فهو وجيه.

وهذا الفعل مشتق من الاسم الجامد وهو الوجه الذي للإنسان ، فمعنى كونه وجيهاً عند الله أنه مرضي عنه ، مقبول ، مغفور له ، مستجاب الدعوة. ١٢١/٢٢

٢٤ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً(٧١)﴾ .

بعد أن نهى الله المسلمين عما يؤذي النبيﷺ وربأ بهم عن أن يكونوا مثل الذين آذوا رسولهم ـ وجَّه إليهم بعد ذلك نداءً بأن يتَّسموا بالتقوى، وسداد القول؛ لأن فائدة النهي عن المناكر التلبسُ بالمحامد، والتقوى جماع الخير في العمل والقول، والقول السديد مَبَثٌّ الفضائل.

وابتداء الكلام بنداء الذين آمنوا للاهتمام به، واستجلاب الإصغاء إليه؛ ونداؤهم بالذين آمنوا لما فيه من الإيماء إلى أن الإيمان يقتضي ما سيؤمرون به؛ ففيه تعريض بأن الذين يصدر منهم ما يؤذي النبيﷺ قصداً ليسوا من المؤمنين في باطن الأمر ولكنهم منافقون، وتقديم الأمر بالتقوى مشعر بأن ما سيؤمرون به من سديد القول هو من شُعَب التقوى كما هو من شعب الإيمان.

والقول: الكلام الذي يصدر من فم الإنسان يعبر عما في نفسه.

والسديد: الذي يوافق السداد.

والسداد: الصواب، والحق، ومنه تسديد السهم نحو الرمية، أي عدم العدول به عن سمتها بحيث إذا اندفع أصابها؛ فشمل القولُ السديدُ الأقوالَ الواجبةَ، والأقوالَ الصالحةَ النافعةَ مثل ابتداء السلام، وقول المؤمن للمؤمن الذي يحبه: إني أحبك.

والقول يكون باباً عظيماً من أبواب الخير ويكون كذلك من أبواب الشر.

وفي الحديث: «**وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**».

وفي الحديث الآخر: «**رحم الله امرأ قال خيراً فغنم أو سكت فسلم**».

وفي الحديث الآخر: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**».

ويشمل القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء، وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء.

فقراءة القرآن على الناس من القول السديد، ورواية حديث الرسول ﷺ من القول السديد.

وفي الحديث: «**نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها**».

وكذلك نشر أقوال الصحابة والحكماء وأئمة الفقه.

ومن القول السديد تمجيد الله، والثناء عليه مثل التسبيح.

ومن القول السديد الأذان والإقامة، قال ـتعالى ـ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ في سورة فاطر.

فبالقول السديد تَشيع الفضائلُ والحقائق بين الناس؛ فيرغبون في التخلق بها، وبالقول السيئ تشيع الضلالات والتمويهات؛ فيغتر الناس بها، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

والقول السديد يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما في التقوى والقول السديد من وسائل الصلاح جعل للآتي بهما جزاء بإصلاح الأعمال، ومغفرة الذنوب.

وهو نَشْرٌ على عكس اللفِّ[1] فإصلاح الأعمال جزاء على القول السديد؛ لأن أكثر ما يفيده القولُ السديدُ إرشادَ الناس إلى الصلاح، أو اقتداء الناس بصاحب القول السديد.

وغفرانُ الذنوبِ جزاءٌ على التقوى؛ لأن عمود التقوى اجتناب الكبائر، وقد غفر الله للناس الصغائر باجتناب الكبائر، وغفر لهم الكبائر بالتوبة، والتحول عن المعاصي بعد الهم بها ضربٌ من مغفرتها. ٢٢/١٢١-١٢٣

٢٥- ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾.

فحقيق بنا أن نقول: إن هذا العرض كان في مبدأ تكوين العالم ونوع الإنسان؛ لأنه لما ذُكرت فيه السماوات والأرض والجبال مع الإنسان عُلِمَ أن المرادَ بالإنسان نوعُه؛ لأنه لو أريد بعض أفراده -ولو في أول النشأة- لما كان في تحمل ذلك الفرد الأمانة ارتباط بتعذيب المنافقين والمشركين، ولَمَا كان في تحمل بعض أفراده دون بعض الأمانة حكمةٌ مناسبة لتصرفات الله -تعالى-. ٢٢/١٢٥

---

١ - اللف والنشر: يسميهما بعض البلاغيين الطي والنشر، وهو أحد فنون علم البديع من علم البلاغة، ويعني أن تذكر شيئين فصاعداً إما تفصيلاً؛ فتنص على كل واحد منهما، وإما إجمالاً؛ فتأتي بلفظ واحد يشتمل على متعدد وتفوض إلى العقل رد كل واحد إلى ما يليق به من غير حاجة إلى أن تنص أنت على ذلك.

أو هو -بعبارة أخرى-: ذكر متعدد مفصل أو مجمل، ثم ذكر ما لكلٍّ من آحاده بلا تعيين؛ اتكالاً على أن السامع يَرُدُّ إلى كلٍّ ما يليق به لوضوح الحال.

ومن أمثلته قوله -تعالى-: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوْا فيْهِ وَلِتَبْتَغُوْا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فالسكون راجع إلى الليل، والابتغاء من فضل الله راجع إلى النهار على الترتيب، وهكذا.

ولهذا الفن تفصيلات ليس هذا محل تفصيلها. (م)

٢٦ـ وقد عُدّت هذه الآية من مشكلات القرآن، وتردد المفسرون في تأويلها تردداً دل على الحيرة في تقويم معناها.

ومرجع ذلك إلى تقويم معنى العرض على السماوات والأرض والجبال، وإلى معرفة معنى الأمانة، ومعرفة معنى الإباء والإشفاق.

فأما العرض فقد استبانت معانيه بما علمتَ من طريقة التمثيل، وأما الأمانة فهي ما يؤتمن عليه، ويطالب بحفظه والوفاء دون إضاعة ولا إجحاف.

وقد اختلف فيها المفسرون على عشرين قولاً، وبعضها متداخل في بعض، ولنبتدئ بالإلمام بها، ثم نعطف إلى تمحيصها وبيانها.

فقيل: الأمانةُ: الطاعة، وقيل: الصلاة، وقيل: مجموع الصلاة والصوم والاغتسال، وقيل: جميع الفرائض، وقيل الانقياد إلى الدين، وقيل: حفظ الفرج، وقيل: الأمانة: التوحيد، أو دلائل الوحدانية، أو تجليات الله بأسمائه، وقيل: ما يؤتمن عليه، ومنه الوفاء بالعهد، ومنه انتفاء الغش بالعمل، وقيل: الأمانة: العقل، وقيل: الخلافة، أي خلافة الله في الأرض التي أودعها الإنسان كما قال ـتعالىـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ الآية.

وهذه الأقوال ترجع إلى أصناف: صنف الطاعات والشرائع، وصنف العقائد، وصنف ضد الخيانة، وصنف العقل، وصنف خلافة الأرض.

ويجب أن يطرح منها صنف الشرائع؛ لأنها ليست لازمة لفطرة الإنسان؛ فطالما خلت أمم عن التكليف بالشرائع وهم أهل الفِتَر فتسقط ستة أقوال وهي ما في الصنف الأول.

ويبقى سائر الأصناف؛ لأنها مرتكزة في طبع الإنسان وفطرته؛ فيجوز أن تكون الأمانة أمانة الإيمان، أي توحيد الله، وهي العهد الذي أخذه الله على جنس بني آدم وهو الذي في قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾.

وتقدم في سورة الأعراف.

فالمعنى: أن الله أودع في نفوس الناس دلائل الوحدانية فهي ملازمة للفكر البشري؛ فكأنها عهْد عَهِد الله لهم به، وكأنه أمانة ائتمنهم عليها؛ لأنه أودعها في الجِبِلَّة ملازمة لها، وهذه الأمانة لم تودع في السماوات والأرض والجبال؛ لأن هذه الأمانة من قبيل المعارف، والمعارفُ من العلم الذي لا يتصف به إلا من قامت به صفة الحياة، لأنها مُصَحِّحةُ الإدراك لمن قامت به، ويناسب هذا المحمل قوله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾.

فإن هذين الفريقين خالون من الإيمان بوحدانية الله.

ويجوز أن تكون الأمانة هي العقل، وتسميته أمانةً تعظيم لشأنه، ولأن الأشياء النفسية تودع عند من يحتفظ بها.

والمعنى: أن الحكمة اقتضت أن يكون الإنسان مستودع العقل من بين الموجودات العظيمة؛ لأنَّ خلقته ملائمة لأَنْ يكونَ عاقلاً؛ فإنَّ العقل يبعث على التغير والانتقال من حال إلى حال ومن مكان إلى غيره، فلو جعل ذلك في سماء من السماوات أو في الأرض، أو في جبل من الجبال، أو جميعها ـ لكان سبباً في اضطراب العوالم واندكاكها.

وأقرب الموجودات التي تحمل العقل أنواع الحيوان ما عدا الإنسان، فلو أودع

فيها العقل لما سمحت هيئات أجسامها بمطاوعة ما يأمرها العقل به؛ فلنفرض أن العقل يسوِّل للفرس أن لا ينتظر علفه أو سومه، وأن يخرج إلى حَنَّاط يشتري منه علفاً؛ فإنه لا يستطيع إفصاحاً، ويضيع في الإفهام، ثم لا يتمكن من تسليم العوض بيده إلى فرس غيره، وكذلك إذا كانت معاملته مع أحد من نوع الإنسان.

ومناسبة قوله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ﴾ الآية لهذا المحمل نظير مناسبته للمحمل الأول.

ويجوز أن تكون الأمانة ما يؤتمن عليه، وذلك أن الإنسان مَدَنِيٌّ بالطبع، مخالط لبني جنسه؛ فهو لا يخلو عن ائتمان أو أمانة؛ فكان الإنسان متحملاً لصفة الأمانة بفطرته والناس متفاوتون في الوفاء لما ائتمنوا عليه كما في الحديث: «**إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة**» أي إذا انقرضت الأمانة كان انقراضها علامةً على اختلال الفطرة؛ فكان في جملة الاختلالات المنذرة بدنو الساعة مثل تكوير الشمس، وانكدار النجوم، ودك الجبال.

والذي بَيَّن هذا المعنى قول حذيفة: «**حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الأخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها فقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكْت**[1] **ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المَجْل**[2] **كجمر دحرجته على رجلك، فنفط، فتراه**

١ـ الوكت: الشية في الشيء من غير لونه.

٢ـ المجل: نفاخة في الجلد مرتفعة يكون ما تحتها فارغاً مثل ما يقع في أَكُفِّ العَمَلَةِ بالفؤوس من ارتفاعات في الجلد.

منتبراً وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان».

أي من أمانة لأن الإيمان من الأمانة؛ لأنه عهد الله.

ومعنى عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال يندرج في معنى تفسير الأمانة بالعقل؛ لأن الأمانة بهذا المعنى من الأخلاق التي يجمعها العقل ويصرّفها، وحينئذ فتخصيصها بالذكر للتنبيه على أهميتها في أخلاق العقل.

والقول في حمل معنى الأمانة على خلافة الله -تعالى- في الأرض مثل القول في العقل؛ لأن تلك الخلافة ما هَيَّأَ الإنسان لها إلا العقل كما أشار إليه قوله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ثم قوله ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾.

فالخلافة في الأرض هي القيام بحفظ عمرانها ووضع الموجودات فيها في مواضعها، واستعمالها فيما استعدت إليه غرائزها.

وبقية الأمور التي فسر بها بعض المفسرون الأمانة يعتبر تفسيرها من قبيل ذكر الأمثلة الجزئية للمعاني الكلية.

والمتبادر من هذه المحامل أن يكون المراد بالأمانة حقيقتها المعلومة، وهي الحفاظ على ما عُهد به، ورعْيه والحذارُ من الإخلال به سهواً أو تقصيراً؛ فيسمى تفريطاً وإضاعة، أو عمداً؛ فيسمى خيانة وخَيْساً؛ لأن هذا المحمل هو المناسب لورود هذه الآية في ختام السورة التي ابتدئت بوصف خيانة المنافقين واليهود و إخلالهم بالعهود وتلونهم مع النبيﷺ قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا

يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾ وقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

وهذا المحمل يتضمن -أيضاً- أقرب المحامل بعده وهو أن يكون هي العقل؛ لأن قبول الأخلاق فرع عنه. ١٢٩-١٢٦/٢٢